الفصل الرابع
الغزو المغولى لآسيا الوسطى

المغول

نبدأ الحديث بالرد على ما يجول فى خـواطرنا وهى أسئلة تقليدية تتبادر إلى الذهن من أول وهلة عن المغول. من هم طوائف المغول؟، وما أصل هؤلاء؟، وما هى سـابقة حـضـارتهم؟، ومن أين جـاءوا؟، ولماذا استـولوا على إيران وعـادوا الإسلام؟...

إن الجواب على هذه الأسئلة سيوصلنا إلى حقيقة هؤلاء القوم.

المغـول شعب بدوى ينقـسم إلى عدد من الطوائف والقـبائل عـديدة تسكن إقليم منغوليا الذى هو جزء من هضبة آسيـا المركزية والشرقية. وكانت هذه القبائل البدوية لا تعـرف معنى الحضارة، بل كـانت قبائل نصف وحشـية، ولم تكن لهم سابقـة بمدينة وحضارة. ولـشدة بدارتهم كانت كل قـبيلة من تلك القـبائل تكون وحدة مـتماسكة من نـاحية الجنس واللغـة، ويرأسها رئيس يحـمل لقب «نويان» تطيعـه وتأتمر بأمره، ولذلك كـانت حياتهم فـطرية بدائية بسيطة لا يـتسرب إليـها التعقيد، وكانوا يقضون معظم أوقاتهم فى المنازعات القبلية وفى البحث عن منابت العشب والكلأ.

لقد حاول كـثير من المؤرخين تتبع الأحداث الداخليـة والحروب والمشاحنات التى كانت تنشب دائما بيـن القبائل المغولية حتى يـصلوا إلى شعاع يضىء الطريق أمامهم، ولكنها كانت آخر الأمر واهية لا ترشد الباحث فى كتابة موضوع متكامل عن المغول. ومع ذلك فإن هناك مصادر كثيـرة عن تاريخ المغول بعضها دون باللغة الصينية والبـعض الآخر بالفارسية وأيضـا باللاتينية أو غيرها من اللغات كـالعربية مثلا لكنها لا تمدنا بمعلومـات كافية عن أصل القبائل المغوليـة خاصة التاريخ المبكر للمغول، وإن كـانت آخر الأمر تعرض سلسلة من المعلومات الناقصـة أو المتناقضة التى تعوزها الدقة فى نفس الوقت.

ولا شك أن المعلومات عن المغول قبل قيام دولتهم على يد جنكيز خان تبدو

جوهرية حتى نستطيع فهم التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية، وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى، فليس من المتصور أن يخرج جنكيز خان ومعه قبائل المغول والتتار ويؤسس إمبراطورية كبيرة دون أن يكون لها نظام وقوانين تحكم هؤلاء، وإلا لما وصلوا إلى قمة المجد نتيجة فتوحاتهم تلك. إن المغول تعاملوا مع شعوب كثيرة شملت الصينيين والترك - جيرانهم - والإيرانيين والعرب والأوروبيين وغير هؤلاء من شعوب أخرى وأحرزوا انتصارات باهرة وأظهروا مقدرة فائقة فى القتال وسياسة الرعية والشعوب المحكومة، والقليل من تلك الشعوب حتى تلك التى انضوت تحت لوائه بحث فى أصل هؤلاء وكتب عنهم. ومن حسن الحظ أن مؤرخا إيرانيا كان له سبق الفضل فى مدنا بمعلومات وافية قيمة مدعمة بالوثائق عن المغول هو «خواجة رشيد الدين فضل الله الهمدانى»، الذى شغل منصب الوزارة لعدد من إيلخانات المغول فى إيران، وكتابه «جامع التواريخ» الذى دونه باللغة الفارسية وبأسلوب سهل سلس عام ٧١٠ هجرية(١٣١٠م) فيه الشىء الكثير عن أصول القبائل المغولية والتركية وتاريخها.

إن كتاب «جامع التواريخ» يقع فى مجلدين كبيرين، طبع منهما المجلد الثانى المشتمل على تاريخ الدولة المغولية من عهد «أوكتاى قا آن» حتى هولاكو خان بمدينة ليدن عام ١٩١١ ضمن مجموعة «جب التذكارية» بتصحيح المستشرق ادجار بلوشيه، وطبعت منه فى باريس سنة ١٨٤٤ قطعة خاصة عن تاريخ هولاكو خان بتصحيح المستشرق الفرنسى كاترمير، ونشر المستشرق كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ السلطان محمود غازان خان فى مجموعة جب التذكارية عام ١٩٤٠، كما أن له نسخة عربية مصورة موجودة فى دار الكتب والوثائق العربية بالقاهرة.

وقد رأى ايلخانات المغول تدوين كتاب فى التاريخ - لشغفهم الزائد بهذا الفن - يجمع الروايات التاريخية لجميع الأمم التى تدخل فى إمبراطورية المغولية، أو التى لها علاقة بالمغول من الصينيين إلى الإفرنج (سكان أوروبا الغربية). ونفذ بعض هذا العمل، وكلف القيام به خواجة رشيد الدين فضل الله الهمدانى الذى كان يهوديا وأسلم على أرجح الأقوال وعاونه فى هذا العمل الخطير رجل مغولى عالم بالروايات التاريخية المغولية، واثنان من علماء الصين، وراهب بوذى من

كشمير ومجموعة من علمـاء إيران وأدبائها. وحاول خواجه رشيد الدين فضل الله تسجيل الروايات التاريخـية كما سمعها من روائهـا بدون تغيير، وعلى ذلك فليس كتـابه من هذه الوجهة تاريخـا علميا بالمعنى المفـهوم فى العصـر الحديث، إلا أنه يشغل فى آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته. وقد قام أستاذنا العلامة الدكتور فـؤاد عبد المعطى الصيـاد بدراسة شخصـية رشيد الدين فضل الـله وكتابه «جامع التواريخ» وأخرج لنا بحوثا ودراسات وتحقيقات قيمة عن المغول وعن رشيد الدين فضل الله وكتابه سدت فراغا فى المكتبة العربية.

وهناك عدد من الكتب باللغات الفارسية والعربية والإفرنجية تعرضت للمغول وتاريخهم لا يسعنا ذكرها الآن، سنتعرض لها فى حينها وفى موضوعها.

موطن القبائل المغولية:

كانت القبائل المغولية تعيش فى مسـتهل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فى هضبـة منغوليا، الواقعة شـمال صحراء جوبى بيـن بحيرة بايكال فى الغرب وجبال خنجان حاجزا منيعا بين الأقاليم الصينية الحارة وبين الأراضى الباردة فى سيبريا، وكـانت القبائل فى ذلك الوقت تقطن المنطقة الممتـدة من سور الصين العظيم جنوبا إلى بحيرة بايكال شمالا. وفى الجنوب الشـرقى لهضبة منغوليا، تقع صحراء جوبى التى ليـست سوى يسهل متسع مسطح أو متمـوج، تغطية طبقة من الحصباء شديدة الصلابة، إذ جردتها الرياح الشديدة من التربة والرمال حتى ظهرت فى بعض جهاتها مساحات من الصخور أشبه بالجزر فى البحار، وكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد، إلا فى أماكن متفرقة.

انعدمت الزراعة فى أكثر جهاتها بحيث لم تشاهد، إلا فى أماكن متفرقة.

إن الظروف القاسيـة أملت على سكان البلاد أن يعيشوا عيـشة رعوية، وأن ينتقلوا من مكان إلى آخر سـعيا وراء الكلأ. وقد امتاز الشعب المغـولى كغيره من القبائل التى تقطن تلك المناطق بصفات متميـزة تنحصر فى الهجرة وعدم الاستقرار فى مكان معين، حـتى أننا نجد المغولى يكن لحرفة الزراعة كـراهية شديدة، وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تسكن بعض السـهول إلى جبال، ولا يتركونها إلا إذا انعدم العشب فيها، وأصبح من المعتذر عليهم البقاء مع قطعانهم.

ومع ذلك كانت توجد مناطق آهلة بالسكان حيث كانت تقوم الزراعة على أطرافها، ويسكنها طوائف بدوية وأخرى حضرية تسكن القرى ولذلك كان مستوى المغول الحضارى على درجات متفاوتة، وأهم منطقتين يقطنهما المغول هما:

١ - حوض بحيرة «بالخاش» Balkhache ويوجد فى وسطه جبال تيان شان Thian Chan، و«كوين لن Kuen Lun»، وهضبة التبت وبحيرة آرال، ويعيش فيها طوائف مختلفة من الجنس الأصفر والأتراك.

٢ - البلا الواقعة بين جبال «سايان Saian» و«آلتاى Altai»، و«خينكان Khingan». وتعد من الناحية الجغرافية من أقصى النواحى معيشة فى كافة أنحاء آسيا المركزية والشرقية، وعيش فيها طوائف من الجنس الأصفر من المغول والتتار.

مناخ هضبة منغوليا:

بعد مناخ هضبة منغوليا قاس، بل شديد القساوة يندر وجوده فى منطقة أخرى فهو يبلغ النهايات العظمى فى الحرارة والبرودة، وفى جفافه الشديد، وفى قوة الرياح العاصفة التى لا حد لها، أما البرودة فهى الغالبة فى معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء إذ يتجمد الماء فى المنخفضات حتى شهر مايو من كل عام، ويمكن أن يرى الجليد على أوانى الشرب فى شهر أغسطس. كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهى، وتبلغ الحرارة فى فصل الشتاء فى بعض الجهات ٥٨ درجة تحت الصفر، وفى فصل الصيف القصير تبلغ درجة الحرارة أحيانا ٦٠ درجة مئوية.

ومما يزيد من قسوة مناخ منغوليا أن الرياح تهب فى معظم أيام السنة شديدة عاتية، حتى أنها تحمل معها الحصى وتنقله إلى مسافات بعيدة مما يجعل مواجهتها مستحيلة. ويشهد على قسوة هذا المناخ كل من زار منغوليا منذ أقدم العصور، يقول المؤرخ هوارث: «أن المناخ بمنغوليا لا يثبت على حال واحد حتى فى أواسط الصيف، وأن الرعد والبرق الذى يؤدى بحياة الكثيرين لا يكاد ينقطع، والثلج يسقط بكميات وفيرة، والأعاصير باردة الريح شديدة الهبوب إلى حد يصعب معها بقاء الرجل على سرجه».

وعلى ذلك فإن الظروف الجغرافية والمناخية لمنغوليا قد جعلتا منه إقليما قفرا

لأن الجبال المحيطة بتلك الهضبة منعت عنها الرياح الدافئة الممطرة فى فصل الصيف، علاوة على البرودة الزائدة فى فصل الشتاء.

نأتى بعد ذلك إلى ذكر أشهر طوائف المغول التى شاركت فى القتال مع جنكيز خان وساهمت فى تأسيس الإمبراطورية المغولية، نجد أن هذه الطوائف تشمل الآتى:

١ - قيات: وهى قبيلة جنكيز خان وكانت صغيرة العدد غير متشعبة، ولد ونشأ فيها مؤسس الإمبراطورية المغولية، وكان والده «يسوكاى بهادر» رئيس وخان تلك القبيلة، وكانت تدين بالوثنية، وبرغم قلة عدد أفرادها إلا أنها تبوأت مكانا مرموقا بين القبائل والطوائف المغولية بعد ظهور جنكيز خان وقيادته الشعب المغولى.

٢ - أويرات Oirat: وكانو يقيمون فى المنطقة الواقعة ما بين نهر «أونن Onon» وبحيرة باكيال، ويسكنون منطقة منابع ينسى «سه كيز موره ن» (أى الأنهار الثمانية)، وكانو كثيرى العدد، ويتكلمون بلغة تختلف قليلا عن لغة القبائل والطوائف المغولة الأخرى.

وقد تشعبوا إلى عدة شعب، إلا أنهم كانوا يأتمرون بأمر واحد، ولما جاء جنكيز خان خالفوه بعض الشىء فى البداية، وناصبوه العداء، إلا أنهم سرعان ما قدموا له فروض الطاعة والخضوع وقد صاهرهم جنكيزخان فيما بعد.

٣ - النايمان: وهم من الأتراك الذين غلب عليه الطابع المغولى، وكانوا يقطنون الحوض الأعلى لنهر «أرخون»، وسفوح جبال آلتاى، وحول البحيرات الواقعة فى تلك المناطق، ويملكون كل غرب منغوليا ابتداء من شمال نهر أورخون إلى نهر ايرتيش، وكانوا بدوا رحل يقيم بعضهم فى مناطق الجبال الوعرة، والبعض الأخر فى الصحارى، وهم يدينون بالمسيحية التى وردت إليهم عن طريق النساطرة من بلاد الشام، وقد استعار النايمان مبادئ ثقافتهم فى ذلك الوقت، وكانوا يتكلمون اللغة المغولية.

وكان للنايمان ملوك أصحاب شهره ونفوذ قوى، ولهم جيوش كثيرة، وكانوا رغم تركيتهم لهم تقاليد وعادات تشبه عادات المغول، ويطلق على ملوكهم لقب

«كوجلوك خـان» أو «بويروق خان»، ومـعنى كوجلوك الملك المعظم والقـوى، أما «بويروق» فمعناه «معطى الأمر»، ومع ذلك فقد كان لكل ملك نايمانى اسم أصلى آخر يختاره له أبواه.

٤ - الكرابيت Kerait: وموطنهم الـواحات الشرقـية الداخلة فى صـحراء جوبى وجنوب بحـيرة بايكال حتى سـور الصين العظيم، وهم شعب شـبه بدوى ينتمى إلى أصول تركـية، وكانوا يدينون بالمسيحـية على المذهب النسطورى، وأدى تحول الكرابيت إلى المسيـحية أن أضحوا على اتصال بالتـرك الاويغور، الذين كان بينهم عدد كبـير من النساطرة، فامـتدت مدينتهم إلى الكرابيت. وقـد ظلت قبائل الكرابيت منذ القرنـيين الخامس والسادس الـهجريين (الحادى عـشر والثانى عـشر الميلاديين) أقوى قبائل المغول، واستطاعوا إخضاع أغلب الطوائف المجاورة لهم.

وتذكر الروايات التـاريخية أن ملك الكرابيت اعتنق الدين المسـيحى فى سنة ٤٣٨هـ (١٠٧م)، وأنه قد ذاع أمره فى أوروبا، وراجت الأسـاطير والخرافات عن هذه الطائفة وملكهم.

وحوالى سنة ١٢٧٠م مات «كور ياكوس بن مـير جوزهان» خان الكرابيت، وصادف ابنه طغول بعض العقوبات فى الاستـحواذ على ملكه إزاء معارضة أخوته وأعمامه، على أنه ظـفر فى حروبخ على أخوته وأقاربه بمساعـدة «يسوكاى بهادر» والد جنكيزخان الذى صار له بحكم ما تعـاهدا «كين» الصينى. وبهذا صار طغرل أقوى ملك ورئيس قـبيلة فى منغـوليا وقد منحـه إمبراطور كـين - تقديرا له على خدماته وأعمـاله - اللقب الصينى للملك وهو «وانج Wang»، وعرف طغول هذا فى التاريخ بلقبيه الملكيين الصينى والتركى وهما «وانج خان».

٥ - المركيـيت Markit: وهم من المغول، وكـانوا يسكنون المنطقة الواقـعة شمالى بلاد الكرابيت على مجرى نهر «سلنجا» وجنوبى بحيرة بايكال. وكان لهم جيـش قوى ذو بأس شـديد، وعرف عن هؤلاء القـوم ميلهم إلى الشـغب وإثارة الفتن. ولهذا شن عليهم جنكيزخان حربا شعواء اسـتعمل فيها أقصى ما عرف عن المغول من قـسوة وشده، ولم يقف عند هذا الحـد بل أصدر أمره بالقضـاء عليهم جمـيعا، فلم ينج من سيـوف قوات جنكيزخـان إلا القليل. وذكر خواجة رشـيد

الدين فضل الله هذه الواقعة فى كتابه «جامع التواريخ»، وقال ما ترجمته: «لم ينج من سيوفهم أى سيوف جنود جنكيزخان إلا بعض الهاربين، أو من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم، أو من كانوا لا يزالون أجنة فى بطون أمهاتهم». وذكر العلامة القزوينى نقلا عن صاحب كتاب «جامع برزين» أن شعب المركيت مستقل عن الشعب المغولى لكنه كان قويا وصاحب نفوذ كبير».

٦ - التتار: وهم طائفة كبيرة تتكون من قبائل كثيرة، ويتشعبون إلى شعب كثيرة، أحرزت شهرة كبيرة حتى أن الكثير من المؤرخين يطلقون اسم «تتار» على كافة المغول. وكان التتار يقطنون المنطقة التى تحد شمالا بنهرى «أرخون» و«سلنجا Selenga»، ومملكة القرغيز، وشرقا بإقليم الخطأ (الصين الشمالية) وغربا بممالك الأويغور، وجنوبا بإقليم التبت. وبصفة عامة يعيشون فى الجنوب الغربى من بحيرة بايكال حتى «كيرولين Kerulen» وكانوا على صلة بالمسلمين، كما كان من بينهم مسلمون. وقبائل التتار من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشا وجبروتا فى أقاليم آسيا الشمالية، ويذكر المؤرخ رشيد الدين فضل الله أن هؤلاء التتار كانوا أكثر قبائل البدو رفاهية وتنعما، وأنهم كانوا أثرياء.

وقبيل ظهور جنكيزخان على مسرح السياسة الدولية استطاع التتار أن يخضعوا أغلب قبائل الجنس الأصفر البدوية، وكانوا يتمتعون بشهرة واحترام زائد نتيجة قوتهم وجبروتهم بحيث أن القبائل التركية على اختلاف مراتبها وطبقاتها وأهميتها كانوا يتسمون بالتتر، فأطلق على الجميع اسم «تاتار» أو «تتر» يقول رشيد الدين فضل الله: «إنه لهذا السبب لا زال حتى الآن فى بلاد الخطا والهند والصين ومنشوريا وبلاد القرغير والباشغر وصحراء القبجاق وولايات الشمال وأقوام الأعراب والشام ومصر والمغرب يطلقون اسم «تاتار» على أقوام الأتراك».

ويعلق بارتولد على ما ذكره رشيد الدين فضل الله عما ذكره عن التتار أنه لم يكن يعرف شيئا عن استعمال ومدلول كلمة التتر قبل العهد المغولى، فهو يتحدث عن التتر كما لو كان شعبا مستقلا ومنفصلا متميزا عن المغول.

وبظهور جنكيزخان على مسرح السياسة الدولية بدأ صراع التتار يهدأ. ولما كان هؤلاء التتار يعادون المغول ويعتبرون من ألد أعدائهم ويناصرون القبائل الثائرة

عليهم، كان جنكيزخان ينظر إليهم بحذر بالغ على أنه ألد أعدائه وأعداء آبائه وأجداده. فبعد أن انتهى من القضاء على القبائل المناوئة له، تفرغ للتتار، وكان جنكيزخان مدفوعا بدافع الحقد عليهم والانتقام منهم، فقام ومعه جنوده بالإجهاز عليهم واستئصال شأفتهم، وأصدر أمرا قاطعا بألا يترك واحد منهم على قيد الحياة. وتنفيذا لهذا القرار صار جنود المغول يتركون كل ما هو تترى حتى النساء والأطفال، ويشقون بطون الحبالى اعتقادا منهم أن التتار هم سبب الفتنة وأس الفساد الذى كان متوارثا عند المغول. ولم يقف جنكيز خان عند هذا الحد، بل إنه لم يترك فرصة لأى شخص لكى يقوم بحماية هؤلاء التتار أو يحاول إخفاؤهم، لكن على الرغم من هذه الأوامر المشددة، فقد أقبل كثير من المغول على الزواج من بنات التتار، وكان النسل الجديد يضم كبار قواد المغول وزعمائهم.

ومما سبق يتضح أن التتار كانوا قبائل مستقلة عن المغول، ولكن من الغريب أنه على أثر انتصار جنكيز خان على التتار، أطلق اسمهم عليه وعلى أتباعه، وفى بدء هجوم المغول على الممالك الإسلامية كانوا يعرفون بالتتار، كما أطلق اسم «المغول» و«مغل» فاشتهروا فى التاريخ بهذين الاسمين، كما عرف المغول الذين فتحوا الصين باسم التتر أيضا (تاتا) بالصينية، كذلك أطلق ابن الأثير هذا الاسم على أسلاف جنكيزخان، ويقول عنهم فى كتابه الكامل أنهم تتر. وللتر لهجة مغولية خاصة أدركها محمود الكشاغرى وتحدث عنها فى معجمه «ديوان لغات الترك»، وذكر اختلاف اللغة التترية عن اللغة التركية، ويعنى اختلاف المغولية عن التترية والتركية.

وكان يجاور المغول طوائف من الترك يعيشون حياة بدائية أشبه بحياة المغول، نذكر منهم:

١ - الأتراك الأوريغوريون: وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمال شرقى التركستان الحالية. وتذكر الروايات التاريخية، وهى أشبه بالأساطير أن أوغوز أبا الترك كان يؤمن بالله ويدين بالوحدانية، ولكن أباه وأعمامه كانوا كفارا فنازعوه عقيدته، وقاموا ضده وأرادوا القضاء عليه، فانضم إليه بعض أقاربه، وانحازوا إلى جانبه، وصاروا يساندونه ويعاونونه فأطلق عليهم اسم «أويغور»، وهى كلمة تركية تأتى بمعنى الارتباط والتعاون، فغلب عليهم هذا الاسم.

وقامت الحرب بين الأوغوز والأويغور، انتصر فيها الأوغوز، ومع ذلك فإن الأويغور عاشوا تحت أمره الأوغوز حتى سنة ٧٤٥ ميلادية حيث انتقل إليهم الحكم والسيادة، وتلقب أميرهم بلقب «قلنمان» التى عربت إلى «الخاقان». وكان الخاقان الأويغورى يلقب نفسه بأمير «الأون» أويغور (أى أمير قبائل العشرة) والطقوز أوغوز (أى وأمير قبائل الأوغوز التسعة). واستمرت هذه الدويلة التى رأسها زعيم الأويغور حتى سنة ٨٤٠م، اتحدت فيها التسع عشرة قبيلة، الأويغور والأغوز حتى قضى القرغيز على دولتهم.

وحين غزا القرغيز بلاد الأويغور، أجبروهم على النزوح إلى حوض نهر تاريم، حيث أقاموا لهم دويلة ظلوا يمارسون فيها الزراعة والتجارة إلى أن قدم جنكيز خان وسيطر على المنطقة بالكامل. وكان إلى الغرب من بلاد الأويغور منازل القرلق أصحاب الدولة القراخانية، ويليهم قبائل الأغوز أو الغ منتشرة فى مساحة كبيرة حتى بحر قزوين، ومن هؤلاء السلاجقة والقبجاق والعثمانيون.

ونتج عن ابتعاد الأويغور عن الصين، أن ابتعدوا أيضا عن حضارتها وثقافتها مؤثرين عليها حضارة السعد، فاتخذ ملوكهم لقب «شاه»، كما استعملوا فى كتاباتهم أبجدية ترد إلى الأصول السعدية، فكانت تتلاقى مع الأبجدية البهلوية المشتقة من الأبجدية الآرامية.

وانتشرت الكتابة الأويغورية انتشارا واسعا بين شعوب آسيا التركية حتى بعد سقوط دولتم. وعندما دخل ترك أواسط آسيا فى الإسلام، وما تبع شلك من تغير عقائدهم الدينية ومسايرتهم للحضارة الإسلامية، انفصلوا عن الثقافة والحضارة الصينية. كما استعملوا الأبجدية العربية فيما بين القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين، واستعملت أيضا فيما بين القرنين الثالث والخامس عشر بين شعب دولة دشت القبجاق المعروفة بالقبيلة الذهبية والتيموريين فى كتابه التربة القبجاقية والتركية والجغتائية.

وكان الأويغور، رغم أفول نجمهم السياسى كدولة، يلعبون كأفراد دورا ثقافيا كبيرا وسياسيا بارعا عند دول الترك والمغول، وهم الذين عهد إليهم جنكيز خان تأديب أولاده، كما أقاموا على ديوانه ودوواين أبناءه من بعده. بل وصل

نفـوذهم لدى سادتهـم أن كانوا عـمال المـغول فى أغلب البـلاد الإسـلاميـة التى فتحوها. وكان مما دونوه لجنكيز خان «اليـاسا» وهى القوانين المغولية التى عمل بها المغول والتيموريون زمنا طويلا. كما استعمل ايلخانات فارس من المغول - أعقاب جنكيز خـان وحفدة هولاكـو خان - الكتابة الأويغـورية بدورهم فى تراسلهم مع بعض أمراء أوربا فى أواخر القـرن الثالث عشر الميلادى، فكتبـوا بها إلى بابا روما وفيليب الجـميل ملك فرنسا وإدوارد ملك إنجـلترا بغرض قيـام حلف بينهم لحرب المصريين أعداء الطرفين.

٢ - الأتراك القراخطائيون: وهم الذين كانوا يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولى، وتقع ما بين مملكة الخوارزمشاهيين فى الغرب ومساكن المغول فى الشرق، وكان شاطئ نهر سيحون يكون الحد الفاصل بين مملكة القراخطائيين وأقاليم الدولة الخوارزمية.

وأصل هؤلاء من قبائل الخطا النازحين من شمـال الصين. وقد ورد اسمهم فى المراجع الصـينية منذ القـرن الرابع الميلادى قـبل ظهور الإسـلام بزمن طويل. وحدث فى بداية القرن الرابع الـهجرى «العاشر الميلادى» أن ظـهر من بينهم زعيم قوى أخـضع هذه القبائل لسلطته، ونصـب نفسه إمبـراطورا عليهم من سنة ٣٠٤ حتى ٣١٥هـ (٩١٦ - ٩٢٧م) وسمى نفـسه «تاسو tsu-Tai»، واستطاع خلفه أن يخضع شـمال بلاد الصـين، ولقبت أسرتـه باسم «لياؤو Liao» نسبة إلى الإقليم المسمى بهـذا الاسم. واستـمرت هذه الأسرة تحكم فى الصـين من سنة ٣٠٤ إلى ٥١٩هـ (٩١٦ - ١١٢٥م) أى حوالى قرنين من الزمان.

الحياة الاجتماعية:

أما عن حياة المغول الاجـتماعية وعلاقاتهم الأسرية ونظامـهم المعيشى، فإنه يمكن تلخيصه على النحو التالى:

المغـول فرسان رحل يـعيشـون فى الخيـام، وهم قبـائل من البدو الـرعاة، تحكمهم قوانـين وعادات، ويخضعون لرئيس الـقبيلة أو الطائفة، ويطيـعونه طاعة عمياء، ويأتمرون بأمره. وكانت حياة المغول تتفق مع بداوتهم وفقر بلادهم. ولدينا كتاب قيم يحوى تفاصيل دقيقة عن حياة المغول الاجتماعية للمؤرخ هوارث How-

orth وعنوانه History of the Mongol ألفه فى النصف الثانى من القرن التاسع وطبعه فى لندن عام ١٨٧٦م.

يذكر هوارث أن المغول يعتمدون فى طعامهم على الخيل فيأكلون لحومها ومنتجات ألبانها، كما أنهم يأكلون لحوم الحيوانات على اختلاف أنواعها، ويدخل فى ذلك لحوم الكلاب والذئاب والثعالب والفئران، وأيضا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة ولحوم البشر خاصة من أعدائهم. وقد ذكر هوارث ذلك صراحة، فقال: «كان من عادة المغول أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم»، وأيضا «أن المغول فى إحدى غزواتهم فى الصين ضحوا بواحد من كل عشرة رجال فى جيوشهم عندما نفذ طعامهم ليكون طعاما للباقين».

وكان الرعى والصيد عملهم وحرفتهم الرئيسية الذى تدخل الحرب عليه شيئا من التنويع وكانوا عندما تذوب الثلوج ينتقلون شمالا انتجاعا للمراعى الصيفية، كما ينتقلون مع الشتاء جنوبا إلى المراعى الشتوية على جارى عادة أهل السهوب.

أما فى فصل الصيف فلا يأكل المغول من اللحوم إلا قليلا بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة، وذلك أنه إذا مات لديهم ثور أو جواد قطعوا لحمه إلى شرائح رقيقة، ويعلقوها فى الشمس والهواء لتجف دون أن يعتريها الفساد. وكان يستخرجون من ألبان البقر والغنم الزبد والجبن، أما ألبان الأفراس فيستخرجون منها نوعا من اللبن المخمر «الرائب» يعرف عندهم باسم «كومس»، وعن هذا اللبن المخمر يقول هوارث: «أن المغول كانوا يضعون لبن الفرس فى قربة ثم يقلبونه بشدة بقطعة من الخشب، وبعد أن يأخذوا منه الزبد بهذه الطريقة، يتركونه حتى يصبح حامضا، ثم يشربونه فيكون لهم منه غذاء لا بأس به».

أما عن الملابس التى كان يرتديها المغول، فإنها كانت بسيطة للغاية تتناسب مع حياتهم البدوية، وكانوا يصنعونها من أصواف الغنم ووبر الجمال، وأحيانا من جلود الحيوان، وتكاد ملابس النساء تشبه ملابس الرجال. ومن عاداتهم عدم استبدال ملابسهم إلا مرة واحدة كل شهر، وفى فصل الشتاء لا يغيرونها أبدا. ونادا ما كانوا يستحمون، لذلك اتصفوا بالقذارة والنتونة والنجاسة، ومما يذكر عنهم أنهم كانوا إذا مروا بمكان فإن رائحتهم تلتصق به حتى مدة طويلة، أما

بيوتهم فكانت رائحتها تزكم الأنوف ولا يطيق أحد البقاء فيها لعفونتها، وقد ذكر ذلك هوارث فقال: «ويقال أنهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم البتة، ولا يميزون بين طاهر ونجس».

ولا شك أن اتصالهم بالصينيين فى الشرق والمسلمين فى الغرب جعلهم يتأثرون بشعوب المنطقة التى استولوا عليا وتعايشوا معها فى طرق حياتهم، وتغيرت ملابسهم عما كانت عليه من قبل، وبخاصة تم هذا التحول بعد تأسيس إمبراطوريتهم وخروجهم من أرضهم الجرداء. وذكر بعض المؤرخين أنهم رأوا المغول يلبسون الحرير والفراء الثمينة، وتتزين نساؤهم بالحلى والجواهر، ويهتمون بنظافتهم وهندامهم، كما يفعل أباطرة الصين وملوك وأمراء المسلمين، ولكن كان ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن أسسوا إمبراطورية واسعة الأرجاء، وبعد أن أصبحوا سادة وصاروا يستوردون الحرير من الصين وفارس والفراء الثمين من روسيا وغيرها من البلاد الأوروبية التى كانت تدين لهم بالطاعة أو تتصل بهم.

ولم تكن مساكن المغول أحسن حالا من مساكن غيرهم من البدو الرحل، إذا كانت تصنع هى الأخرى من الصوف، وإن كانت تختلف فى طريقة إقامتها، فبينما كانت بيوت البدو غيرهم دائرة حتى لا تجرفها الرياح ولا تنقلب بسهولة عندما تشتد العواصف. وكانت من أجل ذلك دافئة شتاء معتدلة صيفا، وكانت تشبه إناء مقلوبًا قائما على حوائط دائرية على صوف مثبت على هيكل من الألواح الخشبية المتصلة بعضها بقطع من جلود الحيوانات.

أما حاجاتهم ووسائل معيشتهم فكانت بدائية وبسيطة أيضا، وكانوا يضعونها فيما يشبه الصناديق من النسيج المتين المغطى بالصوف حتى لا تعطب، وكانوا إذا عبروا بتلك الصناديق الأنهار أو نزل عليهم المطر يدهنونها بشحم الحيوان أو بلبن البقر حتى لا تتأثر بالماء. ويذكر هوارث: «أن بعض بيوت المغول كانت كبيرة تجرها عربات عند نقلها، يعلق فى الواحدة عشرون بقرة وبعضها صغير يكفى ثور واحد لنقلها، أو تنقل على ظهور الجمال».

وكانت أبواب بيوت المغول تتجه عادة إلى الجنوب تجنبا للرياح القادمة من الشمال والغرب القاسية، وكانت النار تظل مشتعلة دائما فى وسط البيت المغولى،

أما ترتيب هذه البيوت من الداخل فكان بسيطا، ويعلقون على الحوائط الأسلحة والأوانى الجلدية التى كانوا يضعون فيها الألبان ومستخرجاتها، وكان يضعون فى الجزء الداخلى المواجه للباب فراش رب البيت، ويخصصون الجانب الغربى من البيت للرجال والشرقى منه للنساء.

أما عن حياتهم الأسرية فكانت بسيطة للغاية وفطرية، ومع ذلك كان لهم من القوانين والعرف والتقاليد ما يناسب هذه البساطة، أما حياتهم الزوجية فكانت بدائية لا أثر فيها لأعمال التفكير الناضج، فلا هى بالتى تقدر الزواج حق قدره، ولا هى بالتى كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة والهناء. وكان الزواج عندهم عملية تجارية بحتة، ويوضح لنا هوارث ذلك بقوله: «يجب أن تعلم أنه لا يوجد رجل بين المغول له امرأة إلا إذا كان قد اشتراها، ويحدث دائما أن تجتاز بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آبائهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن».

ولا يعتبر المغولى المرأة زوجته الحقيقية حتى تنجب له طفلا، أما إذا كانت عاقرا فيمكنه طردها ولا يقدم الزوج مهرا لزوجته حتى يصبح لها طفل، وكانوا يشجعون على الإنجاب حتى يكثر عدد أفراد القبيلة ليقوى من شأنها ويشد من أزرا، وكانت المرأة المغولية كلما أنجبت أكثر زيد فى احترامها، وكان المغول وهم يعيشون فى وسط مجموعة من الطوائف والعشائر القوية يهدفون إلى الإكثار من نسلهم بالتشجيع على الزواج، لذلك صار العرف عندهم عدم تحديد عدد الزوجات كل حسب قدرته وقوته، فكان للفرد المغولى أن يتزوج ما شاءت له رغبته أن يتزوج حتى صار للبعض منهم قرابة المائة زوجة ومن أقرب الأمثلة على ذلك جنكيز خان نفسه، فقد قيل أنه بنى بأكثر من خمسمائة زوجة فى وقت واحد من بنات الأمراء أو الخانات ومع كثرة عددهن كان جنكيز خان يفضل خمسا منهن.

ويروى هوارث أيضا عن الحياة الأسرية المغولية أن الابن فى بعض الأحيان كان يستولى على زوجات أبيه ما عدا أمه، وذلك لأن منزلة الأب والأم تؤول إلى أصغر الأبناء، ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه ويرعاهن. ومما يجر عليه

اللون أن يدعهن يذهبن إلى منازل آبائهن بعد موت والده. ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يولدون من السرارى والإماء فى الميراث والحقوق الأخرى. ولم تكن هناك فوارق اجتماعية تحول بين زواج أى رجل مغولى من الفتاة التى يرغبها مهما كانت منزلتها فى المجتمع المغولى.

وكانت القوانين السائدة لدى المغول قبل تأسيس إمبراطوريتهم تظهر عليها الشدة والقسوة لردع المعتدين وحفظ الأمن فى مجتمعهم. وهى التى أقرها جنكيز خان وأضاف إليها أشياء تتناسب مع مكانة المغولى فى البلاد المفتوحة، فقد كانت تقضى بالموت على من يرتكب الزنا أو قطع بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضربا مبرحا قد يؤدى بحياة المضروب فى بعض الأحيان، أما إذا كانت الجريمة سرقة جواد أو شىء كبير، فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف إلا إذا كان قادرا على افتداء نفسه بدفع تسعة أمثال الشىء المسروق.

وكان المغول، كغيرهم من الشعوب البدائية القديمة، يدينون بديانة وثنية تعرف بالشامانية، وظلوا يعتنقوها حتى حلت محلها البوذية. وكان المغول طبقا لعقائد الشامانية يعبدون كل شىء يسمو على مداركهم وكل ما يرهبهم، ويدخل الخوف على قلوبهم، فلم آلهة فى النهر والجبل والشجرة الكبيرة، وأيضا لهم آلهة فى الشمس والقمر وفى البرق الخاطف والرعد القاصف، بل وأكثرهم من ذلك لهم آلهة عن يمينهم وعن شمالهم وأمامهم وخلفهم وتحت أرجلهم. وإذا اتجهوا فى صلواتهم صوب الجنوب دل ذلك على احترامهم للنار، وصوب الشرق دل ذلك على احترامهم للهواء، وصوب الغرب دل احترامهم للماء، وصوب الشمال كان فى ذلك احترامهم للموتى.

وكان المغول لا يتقربون إلى هذه الآلهة كما فعل قدامى المصريين أو الإغريق، بل كل ما عثر عليه عندهم كان عبارة عن خيط من أكوام الحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها ويسمونها «أوبو»، تقام بجوار الأنهار أو على قمم الجبال أو تحت الأشجار الضخمة حيث تقدم لها القرابين المختلفة. كما كان المغول يصنعون أشكالا آدمية يبعدون الشر عنها، ويزيدون من عدد الحيوانات فيها وإدرار ألبانها أضعافا مضاعفة.

أما رجال الدين عند المغـول فكانوا أشبه بالكهنة عند المصريين القدمـاء طبقة مسـتنيرة تجيـد علم الفلك وتحدد وقـوع الخسوف والكسـوف فى أوقاتهـا، وتعين للمغول الأيام الصـالحة للعمل وغير الصالحـة له، وإن لم يصل نفوذ هؤلاء الكهنة إلى نفوذ نظرائهم فى مصر القديمة، وكان المغول يأخذون بآراء رجال الدين عندهم قبل أن يقـدموا على عمل هام، يجـمعون جيـشا ولا يدخلون حربا إلا بعـد أخذ موافـقتـهم. وكان هؤلاء الكهـان يعتـمدون فـيمـا يدلون به من آراء على أشكال الخطوط والشقـوق التى تظهر على أكتاف الحـيوانات المحروقة، ويعـتبرون الأغنام والوعول هى أصلح الحـيوانات لهذا الغـرض، وخاصة إذا كانـت مقدمة كـقرابين للآلهة.

صفات المغول:

اشتهر المغول بصفات ثلاث وتميـزوا بها دون سائر الشعوب الأخرى، الأولى صفات جـسدية، والثانية صـفات خلقية، والثالثـة صفات حربيـة، وهذه الصفات الثلاث اكتسبهـا المغول نتيجة نشأتهم فى بلاد فقيرة قاسـية المناخ تتناسب مع البيئة التى شبوا فى أحضانها. إن مميزات المغول الجـسدية تتمثل فى الرأس الكبير والوجه العريض والأسنان القـوية والرقبة القـصيرة والصدر الواسع والـساقين القصـيرتين المقوستين وقصر القامة والبشرة الصفراء السميكة.

وتسبب فـقر البلاد وقلة الغـذاء وقسوة المناخ فى نحـول الوجه وبروز عظم الخد وقصر القامة منـذ أمد بعيد. كما أن البشرة السميكة والجفـون المسترخية التى حبـاهم الله بها تقيـهم الرياح العاتيـة التى يتعرضـون لها فى بلادهم المترامـية فى معظم أيام السنة. أما اعوجاج السيقان فسببه قضاء المغول - رجالا ونساء - معظم أوقاتهم على ظهور جيادهم ذات الركاب القصيرة.

وعن صفاتهم الخلقية فإن البيئة التى عاشـوا فيها أضفت عليهم صفاتا خلقية فريدة، فهم كانوا يعيشون عيشـة بدوية وسط قبائل وطوائف كثيرة أقوى منهم عدة وعددا، وأقـسى منهم شراسة وحبـا لسفك الدماء، وكـان لا بد لهم أن يصطدموا بتلك القبـائل حينما كانـوا يعملون على توفير المراعـى لماشيتهم فى فـصول السنة المختلفـة، ولذلك كانت تقوم المعـارك الطاحنة وتشتد أهوالهـا بين القبائل المغـولية على المراعى الخضراء ومجارى المياه.

وفرضت عليهم بيئتهم البدوية وحالة التنقل التى استلزمتها ظروف حياتهم المعيشية أن يدربوا أنفسهم على حب المخاطرة ومواجهة الشدائد بثغر باسم، وأن يغرسوا هذه الصفات فى نفوس أطفالهم منذ نعومة أظفارهم، فكانوا يدربونهم - وهم فى الثالثة من أعمارهم - على استعمال القوس والنشاب. كما كانوا يدربونهم على صيد الأرانب والفئران. وكما يركب الكبار من المغول ظهور الجياد كان الأطفال يركبون الخراف ويتعلقون بها. وهكذا كان ينشأ الطفل المغولى فى طبيعة قاسية وحياة أشد قساوة، لذلك كانت حياتهم حربا مستمرة مع الطبيعة التى أمدتهم بأعظم سلاحين وهما الصبر والجلد، فأعطتهم صفات المحاربين.

وكان المغولى - كغيره من الشعوب سكان البوادى والقفار - صريحا فى الحق جريئا فى إبداء رأيه، لا يتردد ولا يلين، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة بما فرضه من العادات الموروثة.

أما صفاتهم الحربية، فكان المغول فرسانا بطبيعتهم، وكانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهور الجياد، ولا يكادون ينقلون قدما على الأرض. ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين يختصون بالفروسية، بل إن النسوة من المغول أيضا كن يمتطين الخيل كالرجال تماما. وكن يستعملن القسى والسهام، ويقدرون على البقاء على ظهور الجياد زمنا طويلا، ويذهبن مع الرجال إلى ميدان القتال.

وكانت عادة المقاتل المغولى أنه إذا سار للقتال يحمل كل ما يحتاجه أثناء الحرب، فيحمل آلات لشخذ رماحه، كما كان يحمل الإبر والخيوط لاستعمالها عند الحاجة، ولا يأخذ معه من المؤن إلا قربا من اللبن، وآنية من الفخار ليطهى فيها طعامه وخيمة صغيرة وآلة لحفر الأرض وكيسا من الجلد يحمل فيه ملابسه ويستعمله فى عبور الأنهار.

وكان صبر المغولى يفوق الوصف، فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا، بل ويحاول ما أمكن أن يتظاهر بالمرح كأنه لا يعانى شيئا. والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته التى تدفعه إلى أن يلتهم ما يقدر بخمس كيلو جرامات من اللحم فى الوليمة الواحدة وربع شاة فى اليوم، نجده فى

الحرب يصبر على آلام الجوع، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يسير المغولى مدة عشرة أيام دون أن يتناول أى طعام، وفى هذه الحالة يعيش على دماء جواده، ذلك أن المقاتل المغولى كان يقطع شريانا من شرايين حصانه ويمتص من دمائه ما يسد به رمقه، ثم يسد الشريان ثانية. كما أنه كان يكتفى بما يتناوله من اللبن الحامض (الكومس) الذى يحمله فى قربته، كذلك كانت خيول المغول تشاركهم صبرهم هذا، فكانت لا تحتاج إلى عليقتها من شعير أو فول، بل تحفر الأرض بحوافرها وتأكل ما يظهر من جذور النبات.

كذلك كانت شجاعة المقاتل المغولى مضرب الأمثال، وهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم يقول ابن الأثير: «سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قد قدم رسولا أنه قال: من حدثكم أن التتار (ويعنى ابن الأثير بذلك المغول لأنه لم يفرق بين التتار والمغول) انهزموا وأسروا فلا تصدقوه، وإذا حدثكم أنهم قتلوا صدقوا، فإن القوم لا يفرون أبدا، ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة، وضرب بأسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر».

وإذا كان ذلك حال الفرد المغولى داخل قبيلته فإن تجمع المغول كشعب لم يتم إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى، ذلك أن المغول كانت تخضع لأسرة «كين» الصينية التى اتخذت من بكين عاصمة لها. وابتدأ تدرب المغول على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على أسرة كين وحكمهم، فتعلم المغول أثناء الكفاح شيئا كثيرا مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية. وما أن وافت نهاية القرن الثانى عشر حتى أصبحوا شعبا مقاتلا من طراز ممتاز ينقصه القائد الذى يستطيع أن يقودهم، فكان ذلك من نصيب أحد المغول من قبيلة قيات هو تيموجين الذى عرف فيما بعد باسم جنكيز خان.

جنكيز خان:

إن الشخص الذى استطاع أن يوحد القبائل المغولية المبعثرة وأسس أعظم إمبراطورية فى العالم عرفها التاريخ كان يسمى فى بداية أمره «تيموجين». ولد تيموجين فى منغوليا عام ٥٤٩هـ (١١٥٥م) فى إقليم دولون بولدق، الواقع على الضفة اليمنى لنهر أونون ويقال أنه أخذ اسمه الأصلى هذا من اسم أمير تغلب عليه أبوه «يسوكاى بهادر، حوالى الوقت الذى ولد فيه تيموجين».

وكان والد تيموجين يدعى «يسوكاى بهادر» رئيس وخان قبيلة «قيات» إحدى قبائل الشهيرة. واشتهر يسوكاى بهادر بين قومه بانتصاره على قبائل التتر المجاورة له والتى كانت تخشاها معظم قبائل وطوائف المغول، فالتف حول رايته عدد لا يستهان به من زعما القبائل المغولية. وتزوج يسوكاى بهادر من نساء كثيرات من شتى الأقوام لكن أشهر نسائه كانت والدة تيموجين، وكان اسمها «أولون فوجين»، وقد تزوجها يسوكاى اغتصابا إذا اختطفها ليلة زفافها فى إحدى غاراته على قبائل الماركيت. ومع أنها كيفت حياتها لوسطها الجديد وأصبحت أما لتيموجين إلا أنها كانت على يقين بأن قبيلتها لابد وأن تهب لأخذ الثأر فى يوم من الأيام مهما طال الزمن. وأنجبت هذه السيدة أربعة أولاد اشتهروا فى التاريخ، ولم تنجب إناثا قط، كما كان ليسوكاى بهادر ابن خامس من زوجة أخرى اسمه «بلكوتى نويان»، وكان دائما ملازما لأخيه جنكيز خان فى حروبه الطويلة.

توفى يسكاى بهادر عام ٥٦١هـ (١٦٧م)، وكان ولده البكر يتموجين لا يزيد عمره على ثلاث عشرة سنة، فترك له وهو فى هذه السن المبكرة أعباء كثيرة ومسئوليات جساما، فكانت تركة مثقلة لا يقوى على حملها طفل فى الثالثة عشر من عمره وبخاصة أنه كان الوريث الشرعى لرئيس القبيلة، علاوة على رئاسة حلف مغولى كان والده قد تزعمه وهزم به الصينيين. وكان أول عمل أقدم عليه حلفاء أبيه أن حلوا الحلف الذى كان يرأسه يسوكاى بهادر والد تيموجين عقب وفاته مباشرة، كما انفض عنه أيضا أكثر الأقارب والأتباع، واستغلت قبيلته صغر سنة ورمته بالضعف ورفضت طاعته، وأعلنت التمرد والعصيان والتفت حول زعيم آخر، فاضطر تيموجين هو وأمه وأخوته أن يهيموا على وجوههم وقضوا فترة من حياتهم يعيشون على صيد الحيوان والأسماك بعد أن تخلى عنهم الناس جميعا وذاقوا مرارة الجوع والفقر والحرمان.

وقد فضلت القبائل المغولية الانضواء تحت راية أحد زعماء القبائل المغولية، وعندما توطد له الأمر لم يشعر براحة طالما بقى هناك من يطالب بحقه الشرعى فى وراثة زعامة يسوكاى. لهذا أخذ يطارد تيموجين، وتمكن فعلا من إلقاء القبض عليه، إلا أنه تمكن من الفرار بمساعدة أحد حراس أعدائه الذى رق قلبه عليه وفك أسره وأطلقه من عقاله.

وقد حبت طبيعة منغوليا الشاب تيموجين سيئاتها وحسناتها فوهبته قوة جسمانية رهيبة وتعطسا لسفك الدماء وحقدا على المجتمع، وذكاء فطريا منذ نعومة أظافره. وكان تيموجين المصارع الأول بين أقرانه، وفى سن الشباب المبكر أحب فتاة تسمى «بوتاى»، وكان ذلك قبيل وفاة والده وكانت تصغره بثلاث سنوات، فكلم والده عنها، وحينما قال الوالد أنها ما زالت صغيرة أجاب تيموجين أنه لابد وأن تكبر ويعلمها الزمن الخبر.

كان تيموجين وهو فى سن الشباب عنيدا، ونظر حوله فقرر أن يعمل بمفرده على الرغم من أنه كان بإمكانه الاستفادة من جهتين عند إفلاته من الأسر والحبس، هما عشيرة والد خطيبته بوتاى ثم قبيلة الكرابييت والتى كانت بين ملكها ووالده علاقات وطيدة ومؤاخاة، وكان والد بوتاى من الزعماء الأقوياء، وكانت صلته بوالد تيموجين لاستعادة ملك والده، لا سيما وأن ملكها طغول المعروف عند الغرب «بالقديس جون Prester John» يعتبر نفسه بمقام الوالد بالنسبة لتيموجين لأنه شرب مع يسوكاى بهادر نخب الصداقة الأبدية التى تحتم على أى منهما بمساعدة أولاد الثانى فيما إذا دعت الحاجة، إلا أن تيموجين تردد فى طلب الاستعانة بأى منهما فى بادئ الأمر وذلك حسب قوله بأن بزيادة المفلس لأصدقائه لا تجلب غير العار والاحتقار، وصمم أن لا يزور طغرل كلاجئ وإنما كحليف.

تمكن تيموجين بشجاعته من المحافظة على مراعى أسرته فتحسنت حالته المادية ووقفت بجانبه أنه بنفسها فى نفر ضئيل من الذين فضلوا البقاء بجوار ابنها، ثم بدأت تتوافد عليه بعض القبائل لما توسمت فيه زعامة مقبلة بعد أن بلغ سن السابعة عشر. كما حاول تيموجين إجبار المنشقين من الأتباع والأقارب على العودة إلى قبيلتهم. وناصبهم العداء، وقبل بعضهم العودة إلى حظيرة القبيلة، أما أولئك الذين رفضوا الانصياع لتيموجين، فإنه اصطدم بهم واشتبك معهم فى قتال رهيب، انتصر فيه تيموجين آخر الأمر. وبعد أن دانت له قبيلة قيات برمتها قرر الزواج من خطيبته بوتاى، ثم خلف لزيارة طغرل، وهو موفور الكرامة طالبا منه التحالف ضد قبائل المركيت التى اختطفت فى إحدى غاراتها زوجته بوتاى أخذا لثأر أمه أولون فوجين الذى مضى عليه ثمانية عشر عاما. وقد تمكن تيموجين من الانتصار على المركيت واستعاد منهم زوجته.

وواصل تيموجين خطة والده فى الزعامة والتوسع على حساب المناطق المجاورة متحالفا مع قبيلة الكرايت وإمبراطورية الصين الشمالية المعروفة بإمبراطورية كين Kin، وأحرز نصرا حاسما على عدوه «تركوتاى»، زعيم قبيلة النايجوت، كما بسط سيطرته على منطقة شاسعة من إقليم منغوليا تمتد حتى صحراء جوبى جيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار، ثم عمل بعد ذلك على إخضاع سائر جيرانه من القبائل الأخرى.

إن الانتصارات التى أحرزها تيموجن واتساع نفوذه وفرض سيطرته على القبائل المغولية وغيرها جعلت حليفه رئيس قبيلة الكرايت «أونك خان» ينظر إلى تيموجين الشاب بقلق زائد فدب بينهما الخلاف والشقاق بعد أن كانت بينهما المودة والتحالف، لكن خان الكرابيت وقد بدأ يخشى قوة تيموجين أخذ يعمل على وأد أعماله حتى لا يستفحل أمره ويصعب بعد ذلك معاملته، وفهم تيموجين قصد أونك خان وما يدور فى مخيلته وعلم بما يدبر له فى الخفاء، فأخذ أتباعه وغادر المكان دون أن يستأذن من مضيفه وحليفه الذى تبعه وأوقف تيموجين ومن معه من رجال، وحدثت بين الفريقين معركة شديدة انتهت بقتل خان الكرايت وفوز جنكيز خان، وكان ذلك سنة ١٢٠٣م. ثم استولى على عاصمته قرة قورم وجعلا قاعدة لملكه. وأصبح تيموجين بعد انتصاره على خان الكرايت أقوى شخصية مغولية، فنودى به خاقانا، وعرف باسم «جنكيز خان» أى (إمبراطور العالم) من قبل زعماء المغول والتتار، كما اعترف به امبراطور كين الصينى.

واشتغل جنكيز خان فى الفترة من سنة ١٢٠٣ حتى سنة ١٢٠٦ بتوطيد سلطانه والسيطرة على كافة المناطق التى يسكنها المغول والتتار الواقعة بين نهرى أمور فى الشمال الشرقى وتاريم فى الجنوب الغربى، أى كافة المناطق الواقعة خارج السور الصينى العظيم.

وفى سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٤م) أغار جنكيز خان على قبيلة النايمان المغولية وهزمهم عند حدود جبال آلتاى، وجرح فى المعركة التى نشبت بين الطرفين خان النايمان «تايانك خان»، وما لبث أن توفى بعد قليل. وبعد الاستيلاء على ممتلكات النايمان، تمكن جنكيز خان من هزيمة أقوام أخرى من المغول كانت تسكن عند حدود التبت والحدود الشرقية للتركستان، وأيضا تمكن فى سنة ٦٠٣هـ من هزيمة

الرغيـز، وهم إحدى القـبائل التركـية القـوية المجاورة للمغـول والتتـر، أما ملك الأويغور فإنه أسرع بتقديم ولائه وطاعته إلى جنكيز خان، ثم صار فيما بعد أقوى حليف له.

واتجه جنكيـز خان بعد ذلك إلى إصلاح الشـئون الداخلية لمملكته النـاشئة، فـدعى أول برلمان له «قوريلتـاى» عـام ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) بعد أن وحـد منغوليـا بأكملهـا تحت سلطانه. وفى هذا الاجتـماع حددت لأول مـرة شارات ملكه ونظم إمبراطوريته بأن وضع لشعـبه دستورا اجتماعيا متين البنيـان ودستورا حربيا لا يقل عنه قوة وصـرامة، وتكون أحكام هذا وذاك قـانون «الياسا» لذى نفـذ المغول ومن انضم تحت لوائهم بكب دقة وقدسوه تقديـس الكتب السماوية لأصحاب الديانات المنزلة.

الحرب بين جنكيز خان والصين:

كـان لابد من اصطدام جنيكز خـان بإمـبـراطورية الصـين، ذلك أن بعض طوائف المغول والترك كانت تتبع أسرة كـين الصينية أبان ظهور جنكيز خان، ورأى أن الصينيين لا يكفون عن تحريض القبائل الواحدة منها ضد الأخرى لكى يشغلهم ويلهيهم فـيظلون هم سادة الموقف، ومن ناحية أخرى كى يأمـوا شر الغارات التى تشنها عليهم تلك القبائل، فأراد جنكيزخان أن يضع حدا لتدخل أسرة كين الصينية فى شئون القبـائل المغولية، فاشتبك مع الصـينيين لأول مرة عام ٦٠٨هـ(١٢١١م) واستطاع أن يـحرز جملة انتـصارات على القـوات الصينيـة، وخضعـت له البلاد الواقعة فى داخل سور الصين العظيم وعين عليها حكاما من قبله.

إن الحرب التى شنها جنكيزخان على الصين حشد لها منذ بدايتها حل القوى التى أمكن حشدها من القبائل والعشائر المغولية، حتى أنه لم يبق فى منغوليا سوى ألفين من الرجال. كـما خرج الخاقان بـنفسه، هو وأولاده الأربعة لقيـادة الجيوش المنغولية.

وفى عام ٦١٠هـ (١٢١٣م) عبـأ جنكيزخان قواته، وتحـركت صوب الصين للمرة الثانية، لكنه لم يتمكن من تحقـيق الغلبة عليهم. نعم إنه كان هو المنتصر فى المعارك، ومع ذلك فإنه لم يحرز النصر الحاسم.

ورأى جنكيزخـان ضرورة العودة إلى ضـرورة العودة إلى منغوليـا، لوصول أنباء تفيد أن أعداءه من المغول الفارين يتآمرون عليـه. وقد انتهز جينكيزخان فرصة إرسـال إمبـراطور الصين سنة ٦١١هـ(١٢١٤م) رسـالة إليـه يعرض عليـه الصلح ويحل السلام محل الخصام على أن يضم جنكيز خان كـافة البلاد التى فتحها بحد سيفه فى الصين سواء أكانت داخل السور أو خارجه.

وأخيرا اتفق الطرفان «واى ونج Wai Wang» إمبراطور الصين وجنكيزخان، خاقان المغـول على الصلح، وأرسل إمبراطور الصين بعض الهـدايا إلى جنكيزخان بناء على طلبه. وما أن اجتـاز جنكيز خان ترافقه جيوشـه سور الصين العظيم فى طريق عودته إلى منغوليا، حتى عـدل إمبراطور الصين عن فكرة الصلح وشرع فى تقوية حصونه، وتحصين مدنه وقلاعه، واتـخذ أهبة الاستعداد لملاقاة عدوه المغولى ونقل عاصـمة ملكه إلى مدينة أخرى فـى الجنوب لتكون أقرب إلى ساحة القـتال تاركا كـين العاصـمة الأصليـة تحت حكم ابنه. فمـا كان من جنكيـز خان إلا أن استدار بجيوشه وعاد مسرعا إلى الصين وانقض بجيوشه على جحافل الصين التى لم تكن قد أخذت أهبة الاستعداد، واشتـبك معهم فى معركة فاصلة سقطت على أصلها مدينة كـين فى أيدى المغول عام ٦١٢هـ (١٢١٥م). وكان لسقوط عـاصمة الصين فى يد جنكيز خان دويا هائلا، ذلك أن انتصـار جنكيز خان على الصينيين اعتـبر إنذارا للممالك الإسـلامية التى آوت أعـداءه والفارين من وجـهه. وفى نفس الوقت لم تكن الدولة الإسـلاميـة على أهبة الاستـعداد لملاقـاة المغول فى سـاحة الميدان، فزادت هيـبته فى نفوس الجـميع، وعندما عاد جنكيـز خان إلى وطنه سنة ٦١٣هـ (١٢١٦م) استعد لتعقب أعداءه الذين هربوا إلى الممالك الغربية.

جنكيز خان يتجه صوب الغرب:

كان يحـد منغوليـا والصين من جهـة الغرب مبـاشرة مملكة القـرة خطائيين العظيمة التى يتـزعمها «كور خـان» وتشمل المنطقة الواقعـة من برد الأويغور حتى بحر آرال. وبدأت تلك الدولة فى الضعف نـتيجة الغارات التى قامت بهـا القبائل الرحل من المغول وغيـرهم التى فرت من وجه جنكيز خـان، وقضى هؤلاء الغزاة الرحل الجدد على كل سلطة فى مملكة كور خان، كما سـاعد على ضعفها ووهنها

انشقاق كثير من حكامها المسلمين وعصيانهم، خاصة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه. وخضوع كل من الأمير «أدقوت» الأويغورى لجنكيز خان سنة ٦٠٦هـ(١٢٠٩م)، وهو الذى رافق الجيش المغولى فى حروبه فى الشرق الإسلامى، وأرسلان خان أمير القرلق سنة ٦٠٨ (١٢١١م)، وهو أمير مسلم من الترك خضع للمغول وانضم جنكيز خان.

وكان أهم حدث تم فى الغرب فرار كوجلوك خان ابن ملك النايمان مع جمع غفير من أتباعه، والتجائه إلى كورخان ملك القراخطائيين، واشتراكه فى أحداث المنطقة عندما شق السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه عصا الطاعة على كورخان بعد أن كان تابعا له، ورفض أن يدفع الضريبة السنوية المقررة عليه. إن صراع كور خان ملك القرا خطائيين والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه لم يكن بالأمر السهل، فكلاهما صاحب جيش قوى واستعداد كامل وقدرة على القتال فائقة. فانتهز كوجلوك خان الفرصة - رغم أنه كان لاجئا لا يحق له المشاركة فى شئون الدولة المضيفة - وعرض على كور خان إمكانية تكوين جيش من أتباعه المشتتين والوقوف إلى جانبه ضد مطامع السلطان الخوارزمى. وكان كورخان يخشى ضيفه، فهو تركى مثله لكن عقليته مغولية بما تحمل من معانى الغدر واللؤم والخيانة، فلم يوافقه فى بادئ الأمر. ومن الناحية المقابلة لم ييأس كوجلوك خان وأخذ يحسن الأمر لكورخان وتعهد بألا يعصى له أمرا. وأخيرا أذن له بتنفيذ خطته واتخذ منه عونا له على الخوارزمشاه فى حربه وصراعه المرتقب.

وظهر كوجلوك خان أول الأمر تابعا لكورخان، فجمع جنودا غفيرة من طائفة النايمان، بل وكل مغولى فر من وجه جنكيز خان، وشكل من أولئك وهؤلاء جيشا سرعان ما تكامل عدده وعدته وانضم إليه أيضا حاكم قبيلة المركيت الفار من بطش جنكيز خان وبعض من أتباع كورخان نفسه، حتى صار جيشه أقوى من جيش القرة خطائيين.

استيلاء السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على ما وراء النهر:

إن الحديث عن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه يعتبر متتما لموضوعنا عن الدولة القرة خطائية حيث كانت الأسرة الخوارزمشاهية تابعة لكورخان تدفع له

الجزية السنوية منذ استقلالهم وانفصالهم عن الدولة السلجوقية فى عهد السلطان سنجر.

تولى علاء الدين محمد الخوارزمشاه العرش خلفا لأبيه علاء الدين تكش (٥٦٨ - ٥٩٦هـ) وسار على نهجه فى توسيع رقعة بلاده حتى بلغت أقصى اتساع لها فى عهده، رغم أنه ورث تركة ثقيلة للغاية، إذ كان عليه تقوية دولته فى الداخل ليستطيع مواجهة أعدائه فى الخارج الممثلين فى الدولة الغورية والخلافة العباسية والدولة القراخطائية، واتخذ سياسة محددة إزاء تلك الدول الثلاث، فقد كان عليه السيطرة بقوة جيوشه على الأولى، ومحاولة فرض نفوذه الأدبى على الثانية والتخلص من التبعية ودفع الضريبة السنوية الثالثة، والعمل على اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضى الإسلامية الواقعة تحت سيطرة القراخطائيين.

إن تبعية الخوارزميين لدولة القراخطائيين تعود إلى أكثر من نصف قرن على عهد علاء الدين محمد عندما تمكنوا من الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر واستخلاصه لهم وانفرادهم بإدارته بعد انتصارهم على السلطان سنجر السلجوقى فى المعركة التى نشبت بصحراء «قطوان» الواقعة على بعد ٣٦كم من سمرقند فى الخامس من صفر عام ٥٣٦هـ، وتبعية حكام تلك البلاد - وهم من المسلمين - لكورخان. وقد تمكن السلطان آتسز الخوارزمشاه عدو سنجر اللدود وحليف كورخان القرة خطائى أن يستقل بحكم تلك البلاد على أن يدفع مقابل ذلك مبلغ ثلاثين ألف دينار ذهبا، وأن يقدم أيضا ما يحتاجه كورخان من خيل وجنود. واستمر هذا الاتفاق سارى المفعول حتى عصر السلطان علاء الدين محمد حفيد آتسز الخوارزمشاه.

إن الخطة التى سار عليها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه استغرقت منه قرابة عشر سنوات، استطاع خلالها تقوية جيشه، وتصفية أعدائه ومناوئية فى الداخل، وترقب الفرصة التنفيذ سياسته تجاه القره خطائيين إلى أن كان عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) الذى يعد بداية الصراع الفعلى بين الخوارزميين ودولة القرة خطائيين.

انتهز السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فرصة اتصال عثمان خان الملقب بسلطان السلاطين حاكم سمرقند، وكان تابعا للقرة خطائيين ويدفع لهم

سنويا قدرا معلوما من المال والحيوانات وعرض عليه التخلص من تبعيته لكورخان القرة خطائى، وكان ذلك فى رسالة تضمنت أسف عثمان خان لخضوع المسلمين لأعدائهم فى الدين، وأظهر ألمه من تلك التبعية، وعرض التعاون للتخلص من تبعيته لكورخان، وأن يكون حليفا للسلطان وتابعا للدولة الخوارزمية. وتعهد بدفع ما كان يقدمه لكورخان من أموال وهدايا ويضرب السكة باسم السلطان الخوارزمى ويدعو له على منابر سمرقند وبخارى، وحتى يطمئن عثمان خان الخوارزمشاه على صدق نواياه أرسل بعض أعيان سمرقند وبخارى ليكونوا رهينة لديه.

وافق السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على ما فى رسالة عثمان خان، ووجد ذلك مطابقا لما يجيش فى نفسه وما يخطط له، وانتهزها فرصة ليتخلص بدوره من التبعية لدولة القره خطائيين، تلك التبعية التى تلزمه وألزمت آباءه الثلاثة الذين حكموا قبله بدفع الضريبة السنوية للقره خطائيين. وعندما أرسل كورخان مندوبه عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) فى طلب الضريبة السنوية واستلامها من السلطان الخوارزمى، قتله علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وجاهر بالعداء ثم سار بما اجتمع لديه من جيوش وعبر نهر جيحون حتى إذا ما انضم إليه حليفه عثمان خان السمرقندى، سارت تلك الجموع الغفيرة لمنازلة جيش عدوهم المشترك. وبعد أن التحم الجيشان المتصارعان دارت الدائرة على الجيوش الإسلامية، وهزمت هزيمة منكرة، وكان علاء الدين محمد الخوارزمشاه نفسه بين الأسرى، إلا أنه تمكن من الهرب وعاد إلى بلاده.

وفى العام التالى (٦٠٥هـ - ١٢٠٨م) استعد علاء الدين الخوارزمشاه لملاقاة عدوه، وانتصر عليه عام ٦٠٦هـ (١٢٠٩م)، وقتل وأسر عدد غفير من القرة خطائيين. وكان ملكهم ويدعى «طاينكوكورخان» شيخا تجاوز المائة من عمره، ضمن الأسرى. ونتيجة لذلك الانتصار الذى أحرزه الخوارزمشاه، وضع الخوارزميون أيديهم على كل بلاد ما وراء النهر، ووصلت حدود الدولة الخوارزمية حتى مدينة أوزكند على نهر سيحون.

وأسند السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه حكم ما وراء النهر إلى حليفه عثمان خان حاكم سمرقند، وزوجه من ابنته، وترك حامية خوارزمية ليضمن ولاء السلطان السمرقندى له. وبهذا الانتصار وصل السلطان علاء الدين محمد إلى قمة

مجده، واتـخذ لنفسه بعـد هذه الواقعة التى انتصـر فيها لقـبى «الإسكندر الثانى» و«سنجر» تيمنا بانـتصارات الأول وغلبته على ملوك الأرض قـاطبة وتفاؤلا بطول عمر الثانى.

ونتيجة لتصرفات جنود الحاميـة الخوارزمية التى كان قد تركها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وإساءتهم إلى شعب ما وراء النهر وتعديهم عليهم حيث كانوا أشبه بلصوص وقطاع طرق، وعدم احترامهم لحكام البلاد الأصليين حيث لم يقيمـوا لهم وزنا. وتعديهم على الأهالى واستغـلالهم لهم أسوأ استغلال، نتـيجة لهـذا كله ثار عثـمان خـان على السلطان عـلاء الدين محـمد واتصل بكورخـان ليخلصه من نير الخـوارزمشاه وأتباعه، وما أن تم له ما أراد حتى أمـر بقتل جميع جنود الحامية الخـوارزمية، كما قتل كل خوارزمى يـسكن بلاد ما وراء النهر، وأمر القصابين بتعليق أجساد القتلى ف محـلاتهم وتقطيعها إربا وعرضها على الأهالى، وأهان زوجتـه ابنة السلطان الخـوارزمى، وكاد أن يقتـلها لولا توسلاتـها، وتزوج عثمان خان من ابنة كورخان القرة خطائى توطيدا لحسن الصلات بينهما وجعل من زوجته السابق ابنة السلطان علاء الدين محمد أمة لها.

وما أن علم السلطان علاء الديـن محمد الخوارزمشـاه بما حدث فى ما وراء النهر وثورة عثمان خان سلطان سمرقند عليه وخيانته له حتى سار على رأس جيش كبير ليثـأر لكرامته التى اعتدى عليها فى شخص ابنتـه وجنوده ورعاياه. وانتصرت الجيوش الخـوارزمية على جيـوش عثمان خـان، واستولت على سمرقـند وأباحها السلطان علاء الدين محـمد لجنوده ثلاثة أيام بلياليها، أعملوا فـيها القتل والسلب والنهب، كمـا قبض على عثمـان خان وقتله. وبذلك دانت له سـار مدن ما وراء النهر، وعين على كل مدينة حاكما خوارزميا من قبله.

هزيمة القرة خطائيين على يد كوجلوك خان:

وبذلك جاور الخـوارزمشاه أعداءه القـرة خطائيين، وأخذ ينظر إليـهم بحذر بالغ لما لهم من قوة واستـعداد عسكرى كامل، إلا أن دولة القرة خطائيـين أصيبت بتـصدع أدى بهـا فى النهـاية إلى الاندثار، ذلك أن كـوجلوك خـان زعيم طائفـة النايمان والفار من وجه جنكيز خان التجأ إلى كـورخان بحميه من الخاقان المغولى

وتمكن بدهائه من تأسيس قوة عسكرية من غلول طائفته التى نجت من سيف جنكيز خان، وانضمت إليه قبائل أخرى، مما أثار الذعر فى قلب كورخان ملك القرة خطائيين وحدث قتال بين المضيف وصيفه، واتصل كلاهما بالسلطان علاء الدين، بدأها كوجلوك خان الذى عرض على الخوارزمشاه التحالف منتهزا فرصة الصراع بينهما واستيلاء الخوارزمشاه على ما وراء النهر والعداوة القديمة الدفينة بين الخوارزمشاه والقرة خطائيين. ثم اتصل به أيضا كورخان الذى وجد نفسه فى وضع سيء، وعرض على الخوارزمشاه تناسى العداوة القائمة والاتحاد لمواجهة كوجلوك خان، ولم يرفض السلطان علاء الدين محمد عرض كورخان وتظاهر بقبوله.

وعندما نشب القتال بين القرة خطائيين وكوجلوك وطائفته النايمان الفارة من وجه جنكيز خان، قاد السلطان الخوارزمى جيوشه ووصل إلى مكان قريب من أرض المعركة بحيث رآه كلا الطرفين، وكلاهما يظن أن الجيوش الخوارزمية إنما جاءت لتؤازره. واتخذت الجيوش الخوارزمية أماكنها وهى على أهبة الاستعداد فى مكان قريب من أرض المعركة التى بدأت والسلطان الخوارزمى واقف بين القوتين موقف المتفرج ينتظر رجحان كفة إحداهما على الأخرى لينضم إلى القوة المنتصرة. وما أن دارت الدائرة على جيوش القرة خطائيين، وأسر ملكهم كورخان وزج به فى السجن حيث توفى بعد عامين، حتى أعمل الخوارزمشاه والجيش الخوارزمى السيف فى رقاب البقية الباقية من الجيوش القرة خطائية المنهزمة أو الجنود الفاريين من أرض المعركة.

إن الآثار التى نتجت عن تدمير القراخطائيين كانت غاية فى الأهمية بالنسبة للعالم الإسلامى وذات أبعاد خطيرة على مستقبل الدولة الخوارزمية والشرق الإسلامى بعامة، ذلك أن أملاك كوجلوك خان جاورت أملاك الدول الخوارزمية مما جعل السلطان علاء الدين محمد فى موقف لا يحسد عليه، فإن كوجلوك خان فار من وجه جنكيز خان ولابد أن تنشب بينهما معركة مصيرية، فوجهت أنظار جنكيز خان نحو الأقاليم الغربية من آسيا حيث دولة كوجلوك خان عدوه القديم.

أما كوجلوك خان ملك طائفة النايمان المنتصر، فإن اعتلى عرش القرة خطائيين وأخذ يقوى نفوذه على حساب القوى المتناثرة الضعيفة، فأخضع عددا

كبيرا من القبائل، وكان بعضها تابعا للمغول، فوسع أملاكه حتى شملت الأقاليم الممتدة من بلاد التبت حتى حدود الدولة الخوارزمية.

وكان لابد من صدام مسلح بين السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وكوجلوك خان نتيجة تصرفات الأخير تجاه المسلمين فى بلاده، ذلك أنه تصرف مع المسلمين من رعاياه تصرفات عدوانية، وحابى البوذيين دون سواهم من الأديان الأخرى. وكان كوجلوك خان يدين بالمسيحية إلا أنه بعد أن تزوج من ابنة كورخان وبتأثير نفوذها وفرط جمالها استطاعت إقناع زوجها بالارتداد عن المسيحية واعتناق البوذية التى كانت تدين بها، وأصابه نوع من الهوس الدينى حتى أجبر المسلمين من رعاياه على الارتداد عن دينهم، واعتناق إحدى الديانتين، المسيحية أو البوذية، وإن لم يقبلوا ذلك فعليهم أن يتزينوا بزى الخطائيين. فكان المسلمون يرنصون الحل الأخير مكرهين، ومع ذلك حال بينهم وبين أداء شعائرهم الدينية، وانقطع الآذان من البلاد وكان يجبر الأئمة وكبار رجال الدين المسلمين على الخروج إلى الصحراء ليناظرهم فى شئون الأديان والعقائد، وكان آخر الأمر يسفه آراءهم ويتحداهم إلى أن انبرى له الإمام علاء الدين محمد الختنى وجاد له بشجاعة وبين له زيف مذهبه، وأقام الحجج على صحة العقيدة الإسلامية، فلم يستطع كوجلوك خان ورجال الديانة البوذية من الرد على إمام المسلمين فما كان من كوجلوك خان إلا أن أمر بصلبه على باب إحدى المدارس فى مدينة ختن.

وكان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه ينظر إلى أفعال كوجلوك خان تجاه المسلمين هؤلاء على أنها موجهة ضده، واعتبر السلطان الخوارزمى أنه حامى الإسلامى والمسلمين وبدأ العداء يتجسد بين الطرفين. نادى السلطان علاء الدين محمد بأحقيته فى نصف أملاك الدولة القرة خطائية المنهارة بحجة المساعدة التى قدمها لكوجلوك خان وثمنا لاعتلاء الأخير العرش، وذلك فى رسالة أرسلها فى هذا المعنى، إلا أن كوجلوك خان رفض إجابة الخوارزميين إلى طلبهم بل انتهز الفرصة وهدد السلطان الخوارزمى بشن حرب على الدولة الخوارزمية. فرد عليه الخوارزمشاه بأن أعلن الحرب، واكتفت الجيوش الخوارزمية بدفع وحدات عسكرية لشن هجمات خطافة على أرض الدولة القرة خطائية. ولم يمنع كوجلوك خان من

التوجه إلى عدوه الخوارزمى إلا اشتغاله بمحاربة المغول الذين بدأوا يندفعون صوب الغرب.

جنكيز خان يقضى على كوجلوك خان:

لم ينعم كوجلوك خان بانتصاره ولم يجن ثماره بعد أن جلس على عرش القرة خطائيين، أو بمعنى أدق بغدره وعدم مروءته، ذلك أن جينكيز خان لم يكن غافلا عن عدوه وابن عدوه اللدود يتركه يقوى ويشتد ساعده ليعود ويهاجمه للأخذ بثأر أبيه وثأر قبيلته. فلما فرغ من حروبه فى الصين سير جيوشه لإخضاع القبائل العاصية التى انضمت إلى كوجلوك خان وساهمت فى تكوين دولته. واشترك فى الحملة قائداه الشهيران: «سوبوتاى» الذى كلف بإخضاع قبائل المركيت التى انضمت إلى كوجلوك خان و«جبه نويان» لقتال كوجلوك خان نفسه، وإحضاره حيا أو ميتا.

وتمكن سوبوتاى من هزيمة قبائل المركيت وأبادها عن آخرها، أما جبه نويان فإنه سار إلى كاشغر، واستولى عليها بسهولة وفر كوجولك خان، ولم يحاول مواجهة المغول فى معركة حاسمة، وصار ينتقل من مكان لآخر والمغول يتعقبونه. وانتهت دولته وتحطمت آماله وصار جبه نويان سيد المنطقة وحاكمها. وكان أول ما فعله الحاكم المغول جبه نويان أن أطلق الحرية الدينية لجميع السكان، فتنفس المسلمون الصعداء واستقبلوا المغول كمحررين لبلادهم. وتمكن بعض الصيادين من اعتقاله وسلمه إلى المغول فقتلوه على الفور، وبعثوا برأسه إلى جنكيز خان فى قرة قورم. ثم أعملوا السيف فى كل من وجدوه من طائفة النايمان حتى قضى عليهم جميعا فى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م).

وتمت سيطرة المغول بعد مقتل كوجلوك خان على جميع القبائل التركية التى كانت تخضع للقرة خطائيين، واحتلوا مناطق أخرى كان كوجلوك خان قد ضمها إلى دولته. وكان لانتصار المغول على غريمهم كوجلوك خان نتائج هامة وسريعة، أهمها على الإطلاق دخول جميع القبائل التركية تحت السيطرة المغولية، وكذلك مجاورة جنكيز خان بهذه القوة النامية الرهيبة أملاك الدولة الخوارزمية، مما أدى إلى حدوث الكارثة الكبرى، لا للدولة الخوارزمية وحدها بل للعالم الإسلامى قاطبة.

العلاقات بين جنكيز خان والخوارزمشاه:

ومما سبق أن استعرضناه، نجد أن جنكيز خان قد أسس دولته على أشلاء القوى القبلية الموجودة فى شرق آسيا، حتى صارت حدود دولته تجاور أملاك الدولة الخوارزمية.

وقد جاورت القوتان، الخوارزمية والمغولية كل منهما الأخرى فى انتظار الفرصة المواتية للوثوب على الأخرى. وحدث فعلا أن قامت بعض المناوشات الحربية أبان احتلال المغول للدولة القراخطائية، ذلك أن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وهو فى طريقه إلى مدينة «جند» فى شتاء عام ٦١٢هـ لمحاربة كوجلوك خان أن اتجه إلى صحراء القرغيز حيث سكن طوائف القيجاق، فقابل وهو فى طريقه فرقة من الجيش المغولى بقيادة «جوجى بن جنكيز خان»، وكانت لدى جوجى وبقية القادة تعليمات من الخاقان بعدم الاشتباك مع المسلمين، فبعثوا برسالة إلى السلطان علاء الدين محمد أخبروه فيها أنهم قدموا إلى تلك النواحى بناء على تعليمات جنكيز خان، خاقان المغول لدفع العصاة وتتبع الفارين.

نظر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه أمامه فوجد المغول فى عشرين ألف جندى أما هو فكان جيشه يبلغ الستين ألفا. وكان جواب الخوارزمشاه على رسالة جوجى بن جنكيز خان «بأن جنكيز خان إن كان أمرك ألا تقاتلنى فإن الله تعالى قد أمرنى أن أقاتلك، ووعد لى على قتالك الحسنى، فلا فرق عندى بينك وبين كورخان وكسلوخان لاشتراككم فى الشرك، فأذن بحرب تتقصد فيها الرماح، وتتحطم فيها الصفاح». ثم أمر الخوارزمشاه جيشه بالهجوم على القوات المغولية، لكنه لم يحسم القتال، ولم يصل إلى نتيجة فى المعارك التى نشبت بينهما، بسبب ما كان يفعله المغول فى المعركة من حركات غريبة، وما لديهم من أساليب فى القتال جديدة، وشجاعة فائقة وجرأة نادرة، مما جعل قادة الجيش الخوارزمى ينظرون إليهم فى دهشة بالغة وذهول تام.

إن المعارك التى نشبت بين السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وبين المغول بقيادة جوجى لم تكن حربا بمعنى الكلمة، لكنها أظهرت قدرة المغول القتالية وخبرت جنود الخوارزمشاه. وفى الوقت نفسه تركت أثرا سيئا فى ذهن السلطان

الخوارزمى لدرجة أنه بعد ذلك كان يفر مـن أمام جيوش جنكيز خان فى أى مكان يلتقى فيـه بهم. ويقول النسوى: «وتمكن فى قلب السلطان من الرعب والاعـتقاد ببسالتهم مـا إذا ذكروا مجلسه، يقول: لم ير كرجالهم أقـداما وثباتا على مضض الحرب وخبرة بقوانين الطعن والضرب».

وكان السلطان علاء الدين محـمد الخوارزمشاه منذ فترة يتتـبع أخبار جنكيز خان. وزين له قواده هذا العمل، وبدأ هو نفسه يغتر بقوته وقيادته وما أطلقه عليه أتباعه من ألقاب كان أهمهـا «ظل الله» و«الإسكندر الثانى» و«سنجر الثانى». وما أن وصلت إليه أنبـاء استيـلاء جنكيز خان على مـدينة بكين عاصمـة دولة الصين الشمـالية، أراد أن يستـوضح الأمر فأرسل وفدا من كـبار دولته برئاسـة الشخص يدعى «السيد الأجل بهاء الدين الرازى» إلى الصين يحـمل رسالة الخوارزمشاه إلى جنكيز خان.

استقبل جنكيز خان الوفد استقبالا حـافلا، واستضافه ضيافة كاملة، وعندما استأذن الوفد فى العودة أرسل جنكيز خان معه رسالة إلى السلطان ذكر فيها ترحيبه بالوفد، وأخـبر السلطان أنه ملك المشـرق وأنه يعتبـر الخوارزمشـاه ملك المغرب، ويأمل أن يدوم بينهما الصلح والسلام وتتوطد أواصر العلاقات بينهما.

ولا شك أن أفـعال جنكيـز خان لا توضح حـسن نيـته أو جنوحـه للسلم والصفـاء مع أى زعيم دولة جاورته، كـذلك خططه لا تشير إلا لروح عـدوانية، لذلك لم يشأ أن تكون علاقته بجيرانه الخوارزميين مستندة إلى حق السيف وحده، وبخاصة أن مشاكله فى شرق آسيا واضطراره إلى توطيد نفوذه فى الأقاليم الصينية تمنعه من أن يشـغل جيوشـه فى البلاد الخوارزمـية أيضا، فـهداه تفكيره إلى عـقد معاهدة تجارية مع الدولة الخوارزميـة تكون الصلة بينهما وبين الأتراك الخوارزميين، ويستـطيع من خلالهـا معرفـة أحوالهـا ويكون على صلة برجـالها، ويميـلا على الخوارزميين وتتضمن بعض نصوصها معانى التبعية لدولة المغول.

وفى عام ٦١٥هـ (١٢١٨م) حدث أن اسـتقبل السلطان علاء الدين مـحمد الخوارزمشاه وهو فى مـدينة بخارى بعد عودته من الأقاليم العراقـية وهزيمته هناك وهو يحاول إخضاع الخلافة العباسيـة، ثلاثة من التجار المسلمين من أتباعه قادمين

من قبل جنكيز خـان، وهم: محمود يلواج الخوارزمى، وعلى خواجـة البخارى، ويوسف كنكا الأوترارى، وقد حملهم جنكيز خان الكثير من الهدايا مما تنتجه آسيا الوسطى منهـا سـبائك من الفـضـة وبعض الطبور الـثمـينة والأحـجار الكريمـة والمنسوجات الصوفيـة، كما حملوا معهم رسالة وجهـها جنكيز خان إلى السلطان علاء الدين محمـد الخوارزمشاه، جاء فيها: «ليس يـخفى على عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك، وقـد علمت بسطة ملكك، وإنـفاذ حكمك فى أكـثر أقـاليم الأرض. وأنا أرى مسـالمتك من جملة الواجـبات وأنت عندى مـثل أعز أولادى، وغير خاف عليك أيضا أننى ملك الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لى قبائلهم، وأنت أخبـر الناس بأن بلادى مثارات العساكر ومعادن الفـضة، وأن فيها الغنى عن طلب غيرها، فإن رأيت تفـتح للتجار فى الجبهتين سـبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد».

وكان وقع الرسـالة على السلطان شديدا، ودرس مسـتشاروه رسـالة جنكيز خان واستقر رأيهم جميعا على أنها فى طيـاتها معانى التهديد والوعيد فى أكثر من موضع، فقول جنكيز خان أن علاء الدين محمد الخوارزمشاه فى منزلة الابن معناه التبعية لجنكيز خان ولها شواهد عديدة فى المعاهدات التى كتبت بين أمراء آسيا فى ذلك الوقت الذين كانوا لا يعرفون معنى للعلاقات السياسية التى تقوم على المساواة بين الأطراف المتحالفـة. كذلك تعمد جنكيز خان أن يخـبر السلطان الخوارزمى أنه فتح الصين، وأخضع كافة الطوائف التركية ويعتبرهم رعاياه، فاعتبر السلطان علاء الدين محمـد الخوارزمشاه - وهو تركى الأصل والأرومـة - أن هذا القول يحمل معانى التهديد والوعيد لا سيما وأنه تركى.

وأخيرا استقر رأى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على عقد المعاهدة التـجارية بينه وبين الدولة المغـولية هو كـاره إبرامهـا، وبدأ التبـادل التجـارى بين الدولتين، ونشطت جموع التجار من المسلمين والصينيين كلتا الدولتين فى التعامل التجارى.

ولم يمض قصيـر وقت على توقيع المعاهدة التجاريـة بين الدولتين، المغولى والخوارزمشاهية حتى أقدم جنكيز خان على إجراء اعتبره السلطان الخوارزمى عملا

عدوانيا لا يصح فعله من رئيس دولة صديقة بينهما اتفاقات ومعاهدات ورسائل متبادلة، بل اعتبرها السلطان علاء الدين محمد استهانة بحقوقه وتعديا على دولته. ذلك أن جنكيز خان قام من جانبه بإخضاع القبائل التركية وغيرها المنتشرة فى أواسط آسيا بحجة تأمين الطرق التجارية والضرب على أيدى المعتدين من اللصوص وقطاع الطرق حتى تكون التجارة فى مأمن من شرورهم وعبثهم. وزود الطرق الرئيسية بحراس من قبله، وكلفهم بأن يرافقوا كل تاجر أجنبى يحمل تجارة إلى معسكرات المغول، وكان هؤلاء الحراس يسمون «قداقجية» أى المستحفظون.

نظر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه إلى أعمال جنكيز خان داخل بلاده واعتبرها عدوانا على بلاده وغضب غضبا زائدا لكنه لم يظهر عداءه السافر، واستمر فى تعامله مع الدولة المغولية لعله يستطيع معالجة الأمر أو احتوائه دون نشوب حرب بين الطرفين.

ثم حدث ما قطع الصلات الودية بين الدولتين وتبدلت العلاقات الطيبة بعلاقات عدائية وخصومة، وذلك إثر حادثة اعتبرت المواجهة الحقيقية بين جنكيز خان والسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه. بدأ بمسير ثلاثة من التجار المسلمين من رعايا الدولة الخوارزمية ومن أهل بخارى إلى أقصى الشرق حيث معسكرات المغول وبلاط جنكيز خان، يحملون معهم البضائع من الثبات المذهبة والكرباس وغير ذلك. وقد خفرهم حراس الطرق «المستحفظون» المغول وبدلا من أن يتركوهم بعد وصولهم لتسويق بضائعهم قادوهم إلى بلاط جنكيز خان بعد أن وقفوا على ما معهم من السلع، وعرفوا أن مع أحدهم، ويدعى أحمد من الثياب ما يليق بمقام جنكيز خان نفسه. فلما مثل بين يدى الخاقان طلب أثمانا باهظة لبضاعته حنق عليه. وصادر بضاعته ووزعها على أفراد حاشيته، ثم قبض على التاجر، ولما مثل التاجران الآخران أمام جنكيز خان لم يجرؤا على طلب ثمن البضاعة، وتظاهرا بأنهما جاءا لتقديمها هدية للخاقان فما كان من جنكيز خان ألا أمطر هذين التاجرين ذهبا وفضة، وأخذته الشفقة بالتاجر الثالث رفيق الرحلة فعفا عنه.

وأقام هؤلاء التجار فى أراضى الدولة المغولية فترة كانوا فيها موضع التركيم، وعاملهم المغول معاملة ممتازة. ولما هموا بالرحيل أمر جنكيز خان بأن يرسل كل أمير فى دولته، وكل قائد من قواده العسكريين رجلا أو رجلين من أتباعه يحملون

تجارة مغولية إلى غرب آسيا وبيعها فى الأسواق الخوارزمية، وشراء بعض المنتجات التى يحتاج إليها المغول. وقد تمكن هذا الوفد بسرعة وبلغ عدد أربعمائة وخمسين رجلا من المسلحين كما ذكر الجوينى، ونقل عنه دوسون، وإن كان ابن العبرى قد ذكر أن عددهم بلغ مائة وخمسين شخصا فقط ومن جميع الأديان دون تفريق.

وزود جنكيز خان هذه الجماعة العسكرية المتخصصة فى التجسس والاستطلاع وجمع المعلومات بمبعوث مغولى حمله رسالة إلى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، جاء فيها: «إن التجار وصلوا إلينا، وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين، وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغى أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين وتنحسم مواد النفاق فى ذات البين».

وسار هذا الجمع الغفير قاصدا البلاد الخوارزمية، ووصلت القافلة بكامل هيئتها وتشكيلاتها إلى مدينة أوترار الواقعة على نهر سيحون، وكانت تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربيها. وكان يحكم المدينة فى الوقت الذى وصلت فيه القافلة «اينال خان» والذى يعرف أيضا باسم «غيرخان»، وهو ابن خال السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه وتحت إمرته عشرون ألف فارس.

هال الحاكم اينال خان ورود هذا الجمع من التجار ومن صاحبهم من الرجال العسكريين إلى الدولة الخوارزمية، فخشى الأمر وأدرك أن هؤلاء لم يقصدوا البلاد الإسلامية للتجارة كما يزعمون، وإنما غرضهم التجسس واستطلاع قوة الخوارزميين وتحديد استحكاماتهم. وعندما تأكد أنهم ليسوا من طبقة التجار، وأنهم من العسكريين، كتب إلى الخوارزمشاه يخبره بأمرهم، فأوصى بمراقبتهم، وبعد فترة أمر بمصادرة أموالهم وإرسالها إليه وقتل جميع أفراد القافلة. وفعلا نفذ غايرخان حاكم مدينة أوترار أوامر السلطان الخوارزمى ونفذ المهمة على خير وجه. أما البضائع فقد باعها السلطان علاء الدين محمد لتجار بخارى وسمرقند، وذكر النسوى هذه الواقعة بقوله: «أن هؤلاء قد جاءوا إلى أوترار فى زى التجار، وليسوا بتجار بل اصحاب أخبار، يكشفون منها ما ليس من وظائفهم، إذا خلوا بواحد من العوام يهددونه ويقولن: إنكم لفى غفلة مما وراءكم وسيأتيك ما لا قبل لكم به. وأمثال ذلك حتى أذن له السلطان فى الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه.

فحين أرخى عنانه فى الاحتياط عليهم تعدى طوره، وعدى شوطه، فقبض عليهم، وخفى بعد ذلك أثرهم وانقطع خبرهم، وتفرد المذكور بتلك الأموال المعدة، والأمتعة المنضدة، مكيدة منه وغدرا، وكان عاقبة أمره خسرا».

كذلك علق على هذه الواقعة عطا ملك الجوينى مؤرخ المغول بقوله: «إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء. كما كلفتهم كل شعرة من رءوسهم مائة ألف من أرواحهم»، وأيضا علق على الحادثة المستشرق الروسى بارتولد بقوله: «ولابد أنها درت عليهم أرباحا طائلة ولا سيما إذا عرفنا أن القافلة كانت تتكون من خمسمائة رجل». أما النسوى فإنه ذكر أن أفراد تلك القافلة لم يكونوا تجارا وإنما هم جواسيس، ومع ذلك نجده يقبح ما فعله حاكم أوترار بشأنهم. ونرى أن الحدث الذى أقدم عليه حاكم أوترار بتأييد من السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه كان خاطئا من بدايته، وكان يمكن للخوارزمشاه احتواء المشكلة وإعادتهم إلى دولتهم دون قتلهم أو حتى إهانتهم وأيضا دون شراء المسلمين بضائعهم أو شرائهم بضائع من الأسواق الإسلامية مما يشعر قادة المغول أن الدولة الخوارزمية قد فهمت الغرض الذى من أجله حضر هؤلاء الأشخاص، وأنها حرصا منها على حسن الجوار والسلام أقدمت على هذا الإجراء وأعادت الجواسيس سالمين فتكون بذلك قد أرصدت بابا فى وجه جنكيز خان ولا تعطيه الفرصة لإعلان الحرب أو معاداة الدولة الخوارزمية.

ولما وصلت أخبار تلك المذبحة البشرية إلى مسامع جنكيز خان بسبب تواجد شخص مغولى بعيدا عن الخيام لقضاء حاجة وتمكنه من الفرار، اشتاط غضبا وهاله الأمر، ومع ذلك رغب فى تسوية حسابه مع الخوارزميين بالطرق السلمى. فأرسل إلى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه رسولا من المسلمين يدعى «ابن كفرج»، كان أبوه أميرا من أمراء السلطان علاء الدين تكش والد السلطان علاء الدين محمد، فسار ومعه عضوان آخران من المغول يحملون رسالة من جنكيز خان كلها تهديد ووعيد ويطلب فيها تسليم حاكم أوترار تكفيرا عما حدث. وذكر النسوى نص تلك الرسالة، وقد جاء فيها: «إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار، وألا تعرض إلى أحد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح ومن سلطان الإسلام أقبح. فإن كنت تزعم أن الذى ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر

منك فسلم ينال خان إلى لأجازيه على ما فعل، حقنا للدماء، وتسكينا للدهماء، وإلا فأذن بحب ترخص فيها غوالى الأرواح».

وما أن قرأ السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه رسالة خاقان المغول، حتى أمر بقتل ابن كفرج وميليه، وكان ذلك فى سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م)، وإن كان المؤرخ دوجلاس قد ذكر أن الخوارزمشاه لم يقتل الرسل الثلاثة، بل قتل رئيسهم ابن كفرج بمفرده، وأطلق سراح الآخرين، بعد أن حلق لحيتاهما حتى يرويا قصة مصرع الرسول المغولى لجنكيز خان كما شاهداها.

وسواء أقدم السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه على قتل مبعوث جنكيز خان ابن كفرج بمفرده أو معه زميليه المغوليين، فإن السلطان ارتكب حماقة بقتل الرسول ومن معه، وهى بلا شك سنة قبيحة، وعادة غير شريفة، لم نجد لها مثيلا وسابقة فى الإسلام إلا ما ندر، ولابد أن الخوارزمشاه أقدم على ذلك الإجراء تحت ضغوط سياسية ونفسية صعبة، تعود إلى الناحية الداخلية ليس أكثر. وكانت مطالبة جنكيز خان للخوارزمشاه تسليم لينال خان للمغول لمعاقبته على فعلته وإصراره على ذلك. بعد أن أعلن السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه أنه لم يحط علما بالموضوع، وأن حاكم مدينة أوترار أقدم على ذلك دون إذن منه. فوجد الخوارزمشاه نفسه - بعد تصرحاته تلك - مطالبا بتسليم شخص له وزنه السياسى ووضعه الاجتماعى فى الدولة الخوارزمية، خصوصا وهو ابن خال السلطان نفسه وتربطه به أواصر قرابة وصداقة وطيدة، ومن عشيرة أمه تركان خاتون التى فاق نفوذها فى الدولة الخوارزمية نفوذ السلطان علاء الدين محمد نفسه، بفضل سيطرتها على شئون الدولة وأجهزتها الإدارية وتعضيد الجيوش الخوارزمية لها. وكان الظاهرة المتفشية فى عصر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه تواجد كثير من رجال الدولة من أقرباء تركان خاتون أو من عشيرتها يتفانون فى خدمتها ويأتمرون بأمرها. فإذا فرض وقام السلطان علاء الدين محمد بتسليم اينال خان للمغول كطلبهم، فإنه لا محالة سيواجه ثورة داخلية من جانب رجال الجيش، وإخلال بالأمن قد يؤدى فى النهاية إلى الإطاحة به. أما من ناحية المغول فسوف يعتبرون ذلك تسليما من الخوارزمشاه لهم واعترافا بضعفه أمامه. ففضل قتل الرسل الثلاثة، وبذلك تحددت العلاقات بين المغول والخوارزميين.

وكان قتل الرسل على النحو الذى ذكرناه والطريقة التى تمت بها، بمثابة إعلان الحرب بين الفريقين، فأخذ كل منهما يستعد لمواجهة الآخر. وشرع الخوارزمشاه يستطلع أخبار المغول ويجهز الجيوش ويبنى الأسوار حول المدن، وشغل نفسه ليل نهار برسم الخطط الحربية، حتى صار لا يتكلم إلا فى الموضوع، ولا يكلمه أحد إلا فيه. أما جنكيز خان فإنه انصرف بدوره يستعد لمواجهة الخوارزمشاه، فنظم دولته من الداخل وجيش جيوشه وجهز معدات القتال، وجند لهذا الغرض كل قادر من المغول والتتار والترك فى دولته.

إن مذبحة أوترار تعتبر بداية الصراع الذى جر الوبال على البلاد الإسلامية، حتى أن المؤرخ الديار بكرى عندما أراد تأريخ الواقعة والتعليق عليها قال: «فيا لها من قتلة ما كان أقبحها، أجرت كل قطرة من دماء الرسل سيلا من الدماء». ونفس الشىء ذكره فامبرى فى كتابه حيث قال: «إن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار قد كفر المسلمون عنها بسيل من الدماء كما كلفتهم كل شعرة من رؤوسهم مائة ألف من أرواحهم».

الغزو المغولى لآسيا

حملات جنكيز خان على الدولة الخوارزمية وما وراء النهر.

أعد جنكيز خان حملته لمحاربة السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وكان يعتقد أن القوات الخوارزمية أقوى وأكبر مما تصور، وشرع يتحرك نحو بلاد ما وراء النهر فى خريف عام ٦١٦هـ (١٢١٩م)، وبرفقته أمراء الرلق والماليق والأويغور. ويرى المؤرخون أن القوات المغولية كانت ما بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ ألف جندى. وأن الجيش الخوارزمى كان أكثر من ذلك بقليل، لكن ضعف همة الخوارزمشاه والخلافات التى كانت بين قادة الجيش والدعايات المخيفة عن العدو مكنت جحافل المغول من اكتساح الدولة الخوارزمية فى فترة قصيرة جدا بالنسبة إلى عظم المساحة التى استولى عليها المغول بحد السيف، فهى لا تزيد على أربع سنوات، إذ وصل جنكيز خان إلى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م)، وأتم له إخضاع تلك الدولة، وفعل ما فعله بأهلها ومدنها، ثم عاد فعبر نهر سيحون عائدا إلى منغوليا سنة. ٦٢٠هـ (١٢٢٣م).

استعدادات الخوارزمشاه وخطته الدفاعية:

اجتمع السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه بالأمراء وقادة جيشه وكبار رجال دولته ليطلعهم على خطته ويعرض عليهم ما ينويه المغول وخططهم واستعداداتهم. واقترح الإمام شهاب الدين الخيوقى الذى كان يعتقد فيه السلطان كثيرا بأن يرسل المندوبين والرسل والرسائل إلى كافة بلاد المملكة لجمع العساكر واستنار الناس للدفاع عن الإسلام وجمع التبرعات والمعونات لإيقاف عبور المغول نهر سيحون، لكن أمراء الجيش لم يستحسنوا هذه الفكرة. ورأوا أنه من الأفضل ترك المغول نهر سيحون واصطيادهم بعد ذلك فى بلاد ما وراء النهر التى لا يعرفون مسالكها، بل وقطع المدد عنهم وإهلاكهم آخر الأمر. واقترح آخرون خطة أخرى أشبه بالسابقة، وأخيرا استقر رأى السلطان علاء الدين محمد على اصطياد المغول فى بلاد ما وراء النهر ووزع جيشه على هذا الأساس بين مدن ما وراء النهر المختلفة فى انتظار قدم المغول.

خطة جنكيز خان فى حربه مع الخوارزمشاه:

وفى شهر رجب سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) بلغ جنكيز خان وجيشه نهر سيحون على مقربة من مدينة أوترار، وتوجه إليها وتظاهر بمحاصرتها وكانت خطة جنكيز خان محكمة للغاية، فلم يشأ مهاجمة الخوارزمشاه من جهة واحدة، بل رأى أن ينقض عليه من جهات أربع، وقسم قواته لهذا الغرض إلى أربع مجموعات، عهد إلى كل مجموعة بمهمة الاستيلاء على جزء معين من إقليم ما وراء النهر. وبهذه الخطة أخذ جنكيز خان أعداءه على غرة، ولم يترك لهم فرصة كافية للاستعدادات لمواجهته وتنفيذ خططهم.

إن المجموعات القتالية المغولية الأربع التى تشكل القوات المغولية، كانت على النحو التالى:

المجموعة الأولى: وكانت تتكون من سبع تومانات (التومان بلغة المغول عشرة آلاف) تحت قيادة ولديه جغتاى واوكتاى، وكان واجب هذه المجموعة الاستيلاء على مدينة أوترار.

المجموعة الثانية: وكانت بقيادة ولده جوجى، وهو الابن الأكبر لجنكيز خان ووجهته مـدينة جند، وكانت تعد فى ذلك الوقت إحدى القلاع الإسلامـية الهامة الواقعة على نهر سيحون.

المجموعـة الثالثة: وكانت تتكون من خمسـة آلاف جندى، وقد أمر جنكيز خان عليهـا ثلاثة من كبار قواده، وكـان واجبهم الاستيـلاء على مدينتى «بناكت» و«خجند».

المجموعـة الرابعة: وكانت تحت قيـادة جنكيز خان نفسـه ومعه ابنه تولدى. وكانت هذه المجـموعـة تشكل القسم الأعظم من الجـيش المغولى والقـوة الضاربة الرئيسية. وكانت وجهتها مدينة بخارى الواقعة فى قلب إقليم ما وراء النهر، وكان من واجبهـا أيضا التصدى لقـوات الخوارزمشاه والحـيلولة دون وصولهم إلى المدن المحاصرة على نهر سيحون من ناحية الشرق.

كان هجوم المغول على مدينة أوترار، مفتاح إقليم ما وراء النهر والمدينة التى حدثت فيها مذبحة التجار المغـول. وبها اينال خان حاكم المدينة وقاتل التجار، وما أن علم حاكم المدينة بقدوم المغول حتى قام بإصلاح حصون المدينة وقلعتها وزودها بحاميـة كبيرة، ووكل أمر الدفاع عنهـا أحد قواده المهرة. وحاصر كل من جـغتاى واوكتاى المدينة خـمسة أشهر فـقد الخوارزميون فـيها رباطة جأشهم ونفـذ صبرهم خصـوصا وأنه لم يصلهم مدد من الخوارزمـشاه، حتى فكر القـائد الخوارزمى فى التسليم، لكن اينال خان لم يوافق على فكرة تسليم المدينة للمغول، وقرر فى نفس السنة ٦١٦هـ ونهبوها وطاردوا سكانها الذين أصابهم فزع شديد، بينما تقهقر اينال خان إلى قلعـة المدينة واحتمى بهـا نحوا من شهر، فـقد فى أثنائها مـعظم رجاله وعدته وعـتاده، ومع ذلك ظل يدافع ويقـاتل إلى أن وجد نفـسه حـاصرا من كل جانب، فـقذف بنفسه إلـى سقف أحد المنازل والمغول ينـظرون إليه، وأخيرا تبـعه جنديان مغوليان، ورغم أنه كان لا يملك شيئا يدافع به عن نفسه إلا أنه كان يقوم بقذفـهما بالحـجارة التى تناوله إياها بعض النسـوة. وأخيـرا وقع فى أيدى المغول فقادوه إلى جنكيز خان، الذى كان قد عسكر فى ذلك الوقت أمام مدينة سمرقند، فانتقم منه ونكل به بأن أمر بصب كمية من الفضة السائلة فى عينيه وأذنيه، وبذلك

نفذ جنكيز خان وعيده فى قاتل تجاره ورسله، وبسقوط مدينة أوترار سقط مفتاح إقليم ما وراء النهر واهتزت الدفاعات الخوارزمية إزاء هذا الحادث الكبير.

أما المجموعة الثانية التى قادها جوجى، فإنها توجهت إلى مدينة جند، واستولت وهى فى طريقها على كثير من القلاع والمدن الواقعة على نهر سيحون، وتمكن بذلك جوجى من السيطرة على كل مجرى النهر تقريبا. وعندما اقترب من مدينة جند غادرها حاكمها ليلا تاركا لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم. ونصب المغول المجانيق حول المدينة استعدادا لتحطيم أسوارها. وهال سكان مدينة جند قوة المغول واستحاماتهم التى نصبوها حول مدينتهم، وانقسموا فيما بينهم إلى فريقين، فريق آثر الاستسلام والنجاة بأرواحهم من الوقوع تحت سيوف المغول، وفريق رأى ضرورة الدفاع عن المدينة ورفضوا الخضوع والاستسلام للكفار مهما كلفهم الأمر من جهد ومال وأرواح. وتشاجر الفريقان كل يؤيد رأيه حتى داهمهم جوجى ودخلت الجيوش المغولية المدينة بعد أن استولت عليها عنوة، وسلم من سلم من أهلها، وقتل من قاتل المغول ثم وضع جوجى على المدن المفتوحة حكاما من قبله، وواصل سيره بعد نجاحه الكامل فى ما كلف به وعبر نهر سيحون إلى إقليم خوارزم.

أما المجموعة الثالثة فقد سارت إلى مدينة «بناكت» على نهر سيحون وتمكنت من دخولها بعد أن سلمها الأهالى، وكان المغول قد أمنوهم على أرواحهم وممتلكاتهم لكنهم غدروا بأهلها وما أن دخلوها حتى فصلوا الجند عن الأهالى المدنيين، وأعملوا القتل فى رقاب الفريق الأول، واختاروا من الفريق الثانى خيرة شبابه لينتفعوا بهم فى أعمالهم الحربية. ثم سارت الفرق العسكرية المغولية بعد ذلك نحو الجنوب تجاه مدينة «خجنده» الواقعة على نهر سيحون، فتركها قائدها والتجأ إلى جزيرة صغيرة فى وسط النهر بعيدة عن شاطئيه، فحاصروه حصارا شديدا. ومن الغريب حقا أن المغول استعانوا بقرابة خمسين ألف من شباب الخوارزميين الذين سخروهم لمساعدة الجيوش المغولية، فكلفهم المغول بإحضار الأحجار من الجبال المجاورة وإلقائها فى النهر، وأخيرا لاذ الحاكم الخوارزمى من مكمنه بالفرار متجها نحو الشمال، لكن المغول مركبا بعد أن شحن جنده وأمتعته وسار فى النهر متجها نحو الشمال، لكن المغول كانوا يراقبونه من جانبى النهر

الذى سدوه بقنطرة من السفن، فما كان منه إلا أن امتطى صهوة جواده وقاتل أعداءه قتال اليائس واستطاع الإفلات بنفسه فقط من حصارهم والوصول إلى مدينة خوارزم حيث كان يرابط جلال الدين منكبرتى الابن الأكبر للسلطان الخوارزمى علاء محمد.

جنكيز خان يستولى على بخارى ويبيد أهلا ويجعلها طعمة للنيران:

أما المجموعة المغولية الرابعة والتى كان يقودها جنكيز خان وابنه تولوى، فإنها توجهت إلى مدينة بخارى، واستولت على المدن التى صدفتها فى طريقها وجردتها مما فيها من ذهب وفضة وأشياء ثمينة، وسخرت من يصلح من سكانها فى حصار مدينة بخارى. وعلى الرغم من أن الجيش الخوارزمى الذى وكل إليه أمر الدفاع عن المدينة كان يبل عشرين ألف مقاتل، فإنه ما لبث أن انهار وخارت عزيمته وفقد حماسه أمام استعداد المغول وقوة روحهم المعنوية.

وهاجم المغول المدينة أياما متتالية بعنف وقسوة شعر لمدافعون فى أثنائها باليأس، وقرروا الانسحاب ليلا، وحتى يخترق المسلمون صفوف المغول قاتلوهم قتالا عنيفا، وحققوا هدفهم فى فتح ثغرة فى جيش عدوهم، وكانت ضربات الخوارزميين قوية حتى أن المغول أرغموا على الارتداد، وبدلا من أن يتتبع الخوارزميون أعداءهم الفارين، نجدهم يفضلون الهرب من المعركة، فعاد المغول وطاردوا المسلمين أثناء هروبهم واشتبكوا معهم فى قتال عنيف بالقرب من نهر سيحون، انتصر فيه المغول وقتلوا كثيرا من جند المسلمين. أما من بقى من الأهالى فى المدينة، فقد خارت قواهم رغم كثرتهم وقرروا الاستسلام، وأرسلوا بدر الدين خان قاضى المدينة مندوبا عنهم رسولا إلى جنكيز خان يعرض عليه تسليم المدينة ويطلب الأمان لسكانها، فلما أجابه جنكيز خان إلى طلبه فتحت أبواب المدينة لجحافل المغول.

ودخل جنكيز خان مدينة بخارى فاتحا ونكث بعهده الذى أعطاه للقاضى بدر الدين خان مندوب شعب المدينة، وبعد أن استسلم أهلها قهرا وهبها جنكيز خان لجنوده، فنهبوها وعاثوا فيها فسادا وارتكبوا من الفضائح والموبقات الشىء الكثير. ثم سار جنكيز خان إلى قلعتها لاحتماء كثير من الجند بها، وادفعوا عن أنفسهم،

وتمكنوا من قتل عـدد كبيـر من المغول ومن المسلمين الذين اسـتخدموا فى حـصار القلعة. وهال جنكيز خان كثرة ضحـاياه فانتقم من سكان المدينة بأن أخرجهم منها مجردين من أموالهم وأمتعتهـم، ثم حمل المغول على المدينة، وأعملوا فيها النهب وقتلوا من صـادفهم من السكان أو من كـان متوارى ومـختبـئا من وجـههم، ثم أشعلوا النار فى المدينة، فاحـترقت بأسرها وصارت طعمـة للنيران، بحيث لم يبق من سكان بخـارى إلا من كـان خـارجهـا قـبل دخـول المغـول أو نزح إلى إقليم خراسان. إن المذبحة التى أقـدم عليها جنكيز خان لسكان مدينة بخـارى، وضحها لنا أحد الفارين الذيـن تمكنوا من الوصول إلى خراسان، وقال قـولة مقتضبـة عبر فيـها تعـبيرا صـادقا عـما حدث «آمـدند - كشـتند - سوختند - بردنـد ورفتند» وترجمتها «أتوا - قتلوا - أحرقوا - نهبوا ثم هبوا».

استيلاء المغول على سمرقند:

وبعد أن أجهز جنكيز خان على مدينة بخارى قصد سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر، وصحب معه عددا كبيرا من الأسرى الذين أسرهم من بخارى ليستعين بهم فى حصار سمرقند. ومن المؤسف حقـا أن هؤلاء الذين سيقوا لحرب إخوانهم فى الدين قتل منهم جنـكيز خان فى الطريق عددا كـبيرا، وبخـاصة أولئك الذين ظهرت عليهم علامات التعب ولم يقووا على مواصلة السير. وانضم لجيش جنكيز خان أيضا الكثير من الفرق المغولية التى أنجزت أعمالها، واستعد القاهر المغولى بمن معه من رجال وعتاد للإجهاز على مدينة سمرقند.

إن عدد أفراد حامية سمـرقند كان مثار نقا لاختلاف الآراء، ذلك أن المؤرخ الإيرانى عطا ملك الجوينى ذكـر أن عددهم كان ستين ألفـا من الفرس، وذكر ابن العبرى أن حامـية المدينة كانت تتكون من مائة وعشـرة آلاف فارس، أما ابن الأثير فذكر أنم كانوا خمسين ألفا. وأضـاف هيوارث أنه كان بالمدينة عشرون فيلا أعدت للدفاع.

وعلى كل فـإن الروح المعنوية التى ظهـر بها الخـوارزميـون واستـقبلوا بهـا أعدائهم - رغم عـددهم - كانت تنبئ بسقوط المـدينة فى وقت سريع على الرغم من مناعة حصونها وقلعتها ووفرة جنودها.

وما أن ظهر المغول أما أسوار المدينة حتى دب الذعر فى نفوس المحاصرين، وأمر جنكيز خان الأسرى من المسلمين يسوقهم جند المغول بالتقدم لاحتلال المدينة، فتصدت لهم فرقة من الجند الخوارزمى سرعان ما حلت بها الهزيمة. كذلك رأى فريق من الجنود الخوارزمية من ذوى الأصول التركية أن يستسلموا للمغول، ويعرض الصلح والخدمة فى الجيش المغولى على أساس أنهم والمغول من أصل واحد، فقبل جنكيز خان فكرتهم ووعد بإدخالهم فى خدمته، فخرجوا من المدينة مع عائلاتهم وانضموا إلى المعسكر المغولى. وضيق جنكيز خان الخناق على المدينة وحصارها محاصرة السوار للمعصم فلم يجد المحاصرون بدا من الاستسلام، فخرج قاضى المدينة يتبعه كبار رجال الدين فيها، وقصدوا معسكر جنكيز خان ليعرضوا عليه تسليم المدينة بشرط تأمين سكانها على حياتهم، فوعدهم بالإجابة وتحقيق مطلبهم. وفتحت أبواب المدينة أمام المغول فدخلوها دخول الظافرين. وجريا على عادة جنكيز خان فى خططه العسكرية والإجهاز على أعدائه فإنه أمر السكان بالخروج من المدينة، فخرج بعضهم وتباطأ البعض الآخر، فأعمل القتل فى رقاب الذين لم يخرجوا، كما ذبح كثيرا من السكان الذين خرجوا من بيوتهم طبقا لأوامره، وحجز مجموعة كبيرة أيضا أهداها لأولاده وحريمه وقواده، كما اختار عددا آخر للانتفاع بهم فى الأعمال الحربية، ولما رأى المدافعون بالقلعة ما حل بالمدينة من دمار حاولوا الاستسلام، لكن جنكيز خان استولى عليها عنوة وقتل من كان فيها. وأخيرا سمح القائد المغولى لخمسين ألفا من السكان بالعودة إلى مدينتهم سمرقند بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية. وهكذا تم استيلاء المغول على سمرقند فى أوائل عام ٦١٧هـ (١٢٠م).

كان فتح جنكيز خان لمدينة سمرقند حاضرة إقليم ما وراء النهر نصرا للعسكرية المغولية وتتوجا لأعمال العسكرية. وقبل أن يغادر القائد المغولى سمرقند فرض عليأهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار وصحب معه إلى قرة قروم ثلاثين ألفا من العمال والصناع والحرفيين من أهالى المدينة ليعملوا هناك.

إن الإجهاز على إقليم ما وراء النهر كان ضربة قاصمة للخوارزميين فى كافة النواحى حيث كانوا يعتبرونهم خط دفاعهم الأول، فانهارت بالتبعية بقية خططهم

الدفاعية ومعنوياتهم وتحطمت نفسياتهم مما سهل على المغول بعد الاستيلاء على أقاليم الخوارزمية الباقية دون عناء.

تسخير إقليم خوارزم:

كان إقليم خوارزم، أهم ولايات الدولة الخوارزمية، وكان من الولايات التى تسيطر عليها تركان خاتون والدة الخوارزمشاه علاء الدين محمد. وكانت تتابع أخبار المعارك والهزائم التى منى الجيش الخوارزمى بنفس مضطربة، وما أيقن الخوارزمشاه علاء الدين محمد بالهزيمة والتشتت رأسها ينذرها بالخطر، وطلب منها أن تتقهقر هى ومن معها إلى إقليم مازندران لتكون فى مأمن من القتال. وفى نفس الوقت أرسل لها جنكيز خان رسولا يستميلها إلى جانبه ووعدها بأن يترك لها ما بيدها من أملاك بعد أن يتم أعماله العسكرية.

وبعد أن سيطرت الجيوش المغولية على ما وراء النهر، قررت تركان خاتون مغادرة إقليم خوارزم مع وصيفاتها وأحفادها أبناء علاء الدين محمد الخوارزمشاه، وحملت معها كل ما تمكن حمله من كنوز قاصده العراق العجمى. وقبل أن تغادر الإقليم أمرت بقتل من كان محبوسا من الملوك عند الخوارزميين، وكانوا بضعة عشر نفرا، ثم سارت بالخزائن وقافلتها النسائية ومن يحرسهم من رجال إلى قلعة «إيلال» بمازندران، لكن المغول كانوا أسرع منها، وما أن بلغهم خبر رحيلها حتى تتبعوها فوقعت أسيرة فى أيديهم، فقادوها وحاشيتها وأبناء علاء الدين محمد إلى معسكر جنكيز خان حيث ظلت أسيرة لديهم، وصحبوها معهم إلى العاصمة «قرة قورم» حيث ماتت هناك سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م). أما أبناء السلطان علاء الدين محمد الصغار فقد قتلهم جنكيز خان رغم حداثة سنهم، كما أعطى ابنه جغتاى اثنتين من بنات السلطان الخوارزمى فتزوج واحدة منهما، وأهدى الثانية لأحد رجاله المقربين، كما أعطى جنكيز خان ابنة ثالثة من بنات علاء الدين محمد لحاجبه دانشمند.

أما إقليم خوارزم نفسه، فإنه بعد مغادرة تركان خاتون وحاشيتها له فقد خلا من الحكام الخوارزميين، وأى نوع من الإدارة، بوات ينتظر مصيره المحتوم على أيدى المغول خصوصا وأن الملكة فاتها تعيين حاكم على الإقليم.

أما السلطان علاء الدين محمد فإنه انسحب إلى همدان فى نحو عشرين ألفا من جنوده، ولكنه ما أن بلغه خبر أسر والدته وأبنائه وما حل بهم حتى أصابه الهم والهزيمة، ووصل آخر المطاف إلى جزيرة «آبسكون» يقول الذهبى أن السلطان مرض بالإسهال وطلب الدواء فأعوزه الخبر فمات، وأسلم روحه فى ١٣ شوال سنة ٦١٧هـ. فما كان من أولاده الثلاثة جلال الدين منكبرتى، وأوزلاغ شاه واق شاه ألا أنهم عبروا البحر إلى إقليم خوارزم لمواصلة الكفاح حيث استقبلوا بمظاهر الفرح والسرور. واستطاع جلال الدين منكبرتى الذى خلف والده أن يجمع جيشا كبيرا لمواجهة المغول، لكنه واجه موقفا صعبا، ذلك أن الجيش الذى تمكن من جمعه كان يتكون من القبائل التركية التى تنتمى إليها تركان خاتون، والتى لم ترض عن تولى جلال الدين منكبرتى الحكم بعد أبيه، فأراد أن يخضع الجيوش الثائرة بالقوة، فتآمروا على قتله، فلم يجد السلطان الجديد بدا من الفرار والنجاة بنفسه من الهلاك، ففر إلى خراسان ومعه ثلاثمائة فارس فقط.

وما أن علم جنكيز خان بقدوم أبناء السلطان الخوارزمى وتجييشهم للجيوش حتى سير جيشا كبيرا قيادة ثلاثة من أبنائه هم: جوجى وجغتاى وأكتاى للقضاء على المقاومة فى خوارزم. ولكى يحاصر جنكيزخان أبناء السلطان الخوارزمى من كل جهة، أمر جيوشة فى خرسان بأن تقف على الحدود الجنوبية للصحراء وعلى أهبة الاستعداد، وكان ذلك فى المنطقة الصحراوية التى تفصل خوارزم عن خراسان. وعسكر سبعمائة فارس مغولى بالقرب من مدينة نسا. وعندما قدم جلال الدين منكبرتى إلى خراسان التقى بالمغول واشتبك معهم وقتل منهم عددا كبيرا لكنه عزم آخر الأمر لقلة رجاله وكثرة أعدائه، ففر إلى تيسابور.

أما أوزلاغ شاه وآق شاه فكان أسوأ حظ من أخيهما جلال الدين منكبرتى، فقد فرا إلى خراسان ولحق بهما المغول بالقرب من نسا، ثم وقعا فى الأسر، وقطع المغول رأسيهما ورشقوهما فى سهمين، ثم طافوا بهما فى جميع أنحاء خوارزم إمعانا فى السخرية بالخوارزميين وإنذار للمتمردين وإرهاب للأهالى المستسلمين.

وتقدم المغول نحو مدينة«جرجانية» حاضرة خوارزم والتى كانت من أكبر المدن الإسلامية وأكثرها عمرانا فى ذلك الوقت، وطلبوا من أهلها التسليم ووعدهم المغول حسن المعامل'، وأعلنهم جوجى أن أباه الخاقان أعطاه إقليم خوارزم

ليحكمه، إلا أن الأهالى أثروا المقاومة، وحاسر المغول المدين ستة أشهر، وتكبدوا خسائر جسيمة، حتى أن القادة طلبوا من جنكيزخان المدد ليعوضهم عما خسروه فى المعارك، وأخيرا استولوا على المدينة وأشعلوا النار فى منازلها، وأمر القائد المغولى الأهالى بالخروج من المدينة، وطلب من أصحاب الحرف أن يقفوا فى مكان منعزل، وأعمل المغول السيف فى رقاب من بقى من السكان. وكان على كل جندى مغولى أن يقتل أربعة وعشرين رجلا خوارزميا حتى أنه لم يبقى من سكان المدينة إلا الفتيات الصغيرات والأطفال الذين استرقهم المغول. ولم يكتف المغول بما فعلوه فى سكان المدينة، وما أشعلوه من حرائق، بل إنهم فتحوا سدود نهر جيحون فغرقت المدينة وتهدمت أبنيتها وأصبحت خرابا.

وبهذه الطريقة البربرية، أو المغولية الجنكيزية على أصح تعبير، سيطر المغول على إقليم خوارزم، والذى كان لهم معبرا إلى إقليم خراسان لينال ضربتهم التالية.

الإجهاز على خراسان:

بدأ جنكيزخان هجومه على خراسان أثناء عملية إجهازه على لإقليم خوارزم. وكان أول ما فعله القائد المغولى إزاء خراسان أن أمر بإرسال فصائل من جيشه فى ذات الوقت الذى أرسل فيه جيشا إلى إقليم خوارزم ليسد المسالك على الخوارزميين حتى لا يترك لهم سبيلا للهرب وتعرضت خراسان قبل ذلك بفترة يسيره لغزو مفاجئ قام به كل من «جبه نويان» و«سوبوتاى» حينما كان يطاردان السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه، فاستوليا على بعض المدن الخراسانية الهامة مثل نيسابور. وكان جيش الاحتلال المغولى فى خراسان قليل العدد، ذلك لأن القائدين المغوليين لم يهتما كثيرا بإخضاع خراسان قدر اهتمامها بمطاردة الخوارزمشاه وأسرته، ومع ذلك فقد وضع قوادا من المغول على المدن المفتوحة واستسلم الأهالى لهم نتيجة ما سمعوه من فظائع اقترفها المغول فى البلدان الإسلامية التى استولى عليها بحد السيف وبخاصة تلك التى قاوم شعبها المغول. ومع ذلك حاولت المدن الخراسانية الخلاص من الحكم المغولى، مثل قتل الخوارزميين الحاكم المغولى فى مدينة طوس، وإجهازهم على من من بها من جند

وتخليصها من نير المغول، أو بمعنى أدق تطهيرها من دنسهم. واستمر الوضع قائما على ذلك، جيش احتلال مغولى قليل العدد، وأهالى يخشون كارثة تقع على أيدى المغول البرابرة، حتى صدرت الأوامر لتولوى بن جنكيزخان بالسير إلى خراسان فى خريف عام ٦١٧هـ - (١٢٢٠م) ومعه سبعين ألفا من المغول. وفى نفس الوقت عبر الخاقان بنفسه إلى الضفة الغربية لنهر جيحون قاصدا احتلال مدينة بلخ، وتم له الاستيلاء عليها عام ٦١٨هـ (١٢٢١م)، ولم يعفها من التخريب، كما لم يعف أهلها من القتل.

وتقدمت طلائع جيش تولوى بقيادة «طغاجار Togacher» زوج ابنة جنكيز خان وتحت أمرته عشرة آلاف جندى، وعسكروا تجاه مدينة نسا، وتمكن المحاصرون من الانفراد بإحدى كتائب المغول، وقتلوا عددا كبيرا منهم من بينهم قائدهم، فحاصروا طفاجار المدينة مدة خمسة عشر يوما استطاع أن يحدث ثغرة فى سورها واحتلالها ليلا. وما أن طلع النهار حتى بدأ المغول يثأرون من الأهالى، فأخرجوهم من منازلهم، وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر وأن يربط ذراع كل رجل وراء ظهره، ثم أجهز المغول على سكان المدينة جميعهم، نساء ورجالا وأطفالا، حتى قيل أن عدد من قتل من سكان تلك المدينة بلغ أكثر من سبعين ألف.

وانتشر المغول بعد ذلك فى خراسان، وكانوا كلما حلوا ببلد جمعوا الأهالى وساقوهم أمامهم لمساعدتهم فى حصار الأماكن التى يرغبون فى الاستيلاء عليها. كما أرغموا حكام المقاطعات وأتباعهم على الاشتراك فى أعمال الحصار، بل والقتال، ومن أبى منهم قتلوه شر قتله.

وسار طغاجار بعد مذبحة نسا إلى مدينة نيسابور فى نفس السنة ٦١٧هـ، وهاجم المدينة فقتل بسهم من سهام المسلمين، وانسحب من تولى القيادة بعده تاركا عملية فتحها لجيش تولوى.

وكانت المهمة الأساسية لتولوى فى خراسان تنحصر فى الاستيلاء على حاضرته «مرو» والتى كانت مقر سلاطين السلاجقة، ومن بينهم ملكشاه وابنه سنجر، ثم اتخذها الخوارزميون حاضرة لهم بعد أن استولوا على أملاك السلطان

سنجر فى خراسان. وعندما فر السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه من إقليم ما وراء النهر، أمر بنقل دواوين الحكومة والمصالح العامة ووثائق الدولة من مرو إلى إحدى القلاع الحصينة، ووضع حامية للدفاع عن المدينة وحماية الأهالى الذين يبقون فيها.

الاستيلاء على مرو حاضرة الدولة الخوارزمية:

ظهر تولوى أمام مدينة مرو على رأس جيش جرار يتكون من سبعين ألف رجل بينهم عدد غفير من أسرى البلاد الإسلامية التى خضعت للمغول. وكان أول عمل أقدم عليه المغول إبادة قرابة عشرة آلاف رجل من الخيالة التركمان كانوا يعسكرون على مقربة من المدينة بعد أن استدرجوهم فى كمين فقتلوا منهم عددا كبيرا، وفر الباقون، وغنم المغول منهم عددا كبيرا من قطعان الماشية التى كان التركمان قد نهبوها من مرو.

تلى ذلك إحكام حصار المدينة وسد منافذها بقوات مكثفة حتى لا يهرب أحد من أهلها، ووجد حاكم مرو أن لا طاقة له بمحاربة المغول، فأرسل كبار رجال الدين إلى تولوى يعرضون التسليم، بشرط تأمين من فى داخل المدينة، فوعدهم تولوى تحقيق طلبهم. وخرج حاكم المدينة وتوجه إلى معسكر المغول يحمل الهدايا إلى تولوى، الذى استقبله ووعده بتثبيته فى حكم المدينة. وطلب منه رؤية كبار رجال مدينته وأعيانها ليخلع عليهم الخلع ويمنحهم الهبات، فجد الحاكم الخوارزمى فى استدعائهم. ولما حضروا إلى معسكر المغول قيدهم تولوى ومعهم الحاكم المستسلم وطلب منهم إعداد قائمة بأسماء الأغنياء وكبار الملاك الذين جىء بهم إلى معسكر المغول مع نحو أربعمائة من أصحاب الحرف والمهن، وفعلوا ما أراد. ثم دخلت الجيوش المغولية المدينة وطاردت السكان الذين أمرهم تولوى بالخروج، فوعوا جميعا فى فخ المغول بين قتيل وجريح وشريد.

وما أن نجح تولوى فى تحقيق هدفه والاستيلاء على المدينة وتجريد سكانها من أى مقاومة وزع سكان مدينة مرو من الرجال والنساء والأطفال على جند المغول وأمرهم بقتلهم جميعا، ولم يبق من السكان سوى الأربعمائة رجل حرفى الذين أبقاهم المغول للانتفاع بهم فى الأعمال الحربية. وأزال المغول أسوار المدينة ومبانيها

ودمروا قلعتها، ونبشوا قبر السلطان سنجر السلجوقى، وكان بناء فخما ظنا منهم أنهم سيجدون فيه ذهبا وفضة. وهلك سكانها جميعهم الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفا. أما الجوينى فذكر أن جملة قتلى مرو بلغ مليونا وثلاثمائة ألف، عدا الجثث التى كانت فى أماكن خفية لم يستدل عليها.

ثم أسرع تولوى بعد ذلك إلى مدينة نيسابور، فأتى عليها بعد أن وقف أهلها جميعا يدا واحدة ضد المغول، لكن قوة المغول وكثرة عددهم أفقدتهم رباطة جأشهم، وأرسل الأهالى نوابا نهم من الأئمة وكبار رجال المدينة، وعلى رأسهم قاضى قضاة خراسان إلى معسكر المغول، وعرضوا على تولوى تسليم مدينتهم، وتعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية، لكن تولوى رفض التسليم وقرر الانتقام لمقتل زوج أخته «طغاجار».

ولم يمض قصير وقت حتى تمكن المغول من اختراق حصون المدينة، وإحداث ثغرات عديدة فى حوائطها مكنتهم من دخولها من جميع جهاتها بعد أن أجهزوا على الجنود المدافعين عنها، وتمكنوا من احتلالها والقضاء على البقية الباقية من الرجال المحاربين فيها والإجهاز على من اختبأ فى المنازل ومصارف المياه والشوارع. ودخلت ابنة جنكيز خان أرملة طغاجار يصحبها عشرة آلاف رجل، فقتلوا كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال، ولم يتركوا حتى القطط والكلاب. وحتى يطمئن تولوى إلى القضاء على جميع سكان المدينة ترك بعد رحيله عددا من الجنود لقتل السكان الذين قد يظهرون بعد رحيل الجيش المغولى. وفعلا ظهر عددا منهم كانوا مختبئين بين القتلى أجهز عليهم المغول. وقد قدر عدد من قتل سكان مدينة نيسابور بنحو مليون ونصف المليون.

وانتقل تولوى بعد أن أجهز على نيسابور إلى مدينة هرات - التى كانت تعد آخر مدن خراسان الهامة - وعسكر فى سهل خصيب يشرف عليها. وأرسل رسولا من قبله يطلب إلى أهلها التسليم وإلا فسيلقون جزاءا كبيرا، غير أن القتل كان نصب ذلك الرسول، واستعد حاكمها للدفاع عنها. فأمر تولوى بمهاجمة المدينة من جميع جهاتها فى آن واحد. وبعد ثمانية أيام عرض حاكم المدينة التسليم بشرط تأمين الأهالى على أرواحهم، فوافق تولوى على ذلك. وما أن دخل المدينة

حتى أمر بقتل عدد كبير من جند الخوارزميين من أتباع السلطان جلال الدين منكبرتى الذى خلف أباه علاء الدين محمد على حكم الدولة الخوارزمية ومسئولية الدفاع عن الإسلام والمسلمين. كما قتل تولوى أيضا اثنى عشر ألفا من سكان المدينة المدنيين. ولأول مرة نرى تولوى يولى حاكما مسلما على مدينة خوارزمية، وإن كان ذلك الحاكم هو الآخر كان تحت رقابة حاكم مغولى.

وبعد أجهز تولوى على مدينة هرات، تلقى أمرا من أبيه جنكيز خان ليلحق به عند مدينة الطالقان فى أعالى نهر جيحون، وكان الخاقان قد عزم على الرحيل إلى منغوليا. وبذلك خضع إقليم خراسان برمته للمغول بعد أن دمروه تماما.

خضوع الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية للمغول:

انتهت المرحلة الأولى من تحطيم الدولة الخوارزمية، والتى استولى المغول فيها على أقاليم ما وراء النهر وخوارزم وخراسان. وتلى ذلك مرحلة أخرى تتمثل فى مطاردة المغول للسلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه. وقد تولى هذه المهمة القائدان الشهيران «جبه نويان» و«سوبوتاى»، وكانت تعليمات الخاقان لهما بالسير فى اثر السلطان الخوارزمى فإذا وجداه على راس جيش كبير يتجنباه انتظارا لوصول المدد من الجيوش المغولية، أما إذا ركن السلطان إلى الفرار، فيجب عليهما أن يتتبعاه بلا تردد.

وقد ظهر اليأس على السلطان علاء الدين محمد بعد أن رأى اكتساح المغول لبلاده، ولت حركته وانهارت مقاومته، كذلك ما لبث أن تسرب اليأس إلى رجال الخوارزمشاه. أما السلطان فآثر الابتعاد عن مسرح السياسة والحرب معا، وبدا يستعد للهرب عازما الرحيل إلى الأقاليم الغربية من بلاد عله يجد الأمن فيها. أما رجاله وقادة جيشه فإن كل واحد منهم بدأ يفكر فى نفسه ويسعى للحفاظ على حياته بعد انهيار الدولة واكتساح المغول للعالم الإسلامى.

وفى نفس الوقت الذى قرر فيه علاء الدين محمد الخوارزمشاه الهروب عقد مجلسا طارئا ضم وزراءه وكبار قادته للتشاور فيما يفعله الخوارزميون لمواجهة الموقف المتدهور. وانقسم المجتمعون فى الرأى، فريق رأى أنه لم يعد هناك من الوقت ما يتسع لحماية بلاد ما وراء النهر وأنه يجب التركيز لحماية الأقاليم الواقعة

غربى نهر جيحون. وفريق آخر رأى وجوب انسحاب السلطان علاء الدين محمد إلى غزنة، وهناك يجمع جيوشه المتفرقة ويواجه بها المغول بعد تنظيمها واستعدادها للقتال، وإن حلت الهزيمة بالجيش الخوارزمى يمكن الانسحاب إلى الهند ومعاودة الكرة مرة بعد أخرى.

وفضل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه الرأى الثانى، وسار فى طريقة إلى غزنة، لكن حدث وهو فى مدينة بلخ ما دفعه إلى تغيير خطئة والاتجاه نحو العراق العجمى أثر إيعاز من وزيرة «نظام الملك» الذى زين له الاتجاه إلى الغرب لعله يجد هناك المال والرجال لمساعدته فى محنته لصد المغول. وما أن وصل السلطان علاء الدين محمد إلى مدينة نيسابور، علم أن المغول قد عبروا نهر جيحون، وأنهم يجدون فى البحث عنه، لذلك بادر إلى مغادرة المدينة ويمم شطر العراق العجمى.

وجد القائدان المغوليان جبه نويان وسوبوتاى فى السير للحاق بالسلطان الخوارزمى كتعليمات الخاقان، وكل منهما يقود فرقة من ألف جندى مغولى ليس أكثر، وأستولى على مدينة الرى. وقبل استيلائهم على الرى عثروا مصادفة وهم فى الطريق على والدة السلطان «تركان خاتون» التى انسحبت من خوارزم وأرادت أن تعتصم بقلعة فى العراق العجمى، فأسروها ووضعوا أيديهم على ما معها من نفائس وكنوز وجواهر، وبعثوا بهذا كله مع أسيرتهم إلى جنكيزخان. وكان لسقوط مدينة الرى فى أيدى المغول أثر كبير على نفسية السلطان علاء الدين محمد الذى كان حتى ذلك الوقت يفكر فى الطريق الذى ينجيه من الهلاك، وهرب الجنود، وتركوا السلطان بمفرده يواجه الموقف الصعب. كما استولى الفزع على الأهالى، وبدأ كل شخص ينظر إلى نفسه وتدبر حاله والتنصل من المسئولية حتى أصبحت البلاد دون قادة أو حكام، كل يواجه مصيره بنفسه. وعندما دخل المغول مدينة الرى ودوا سكانها مختلفين مع بعضهم. وأصحاب المذاهب الإسلامية فى قمة خلافاتهم فى تفسير بعض نصوص القرآن الكريم مما سهل على المغول الاستيلاء عليها بسهولة ويسر، وقتلوا كل من كان فيها.

موت السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه:

فضل السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه التوجه إلى إقليم مازندران، وفعلا تمكن من الوصول إلى ذلك الإقليم الذى لم يكن قد أصيب بشىء على أيدى المغول، واستقبله أمراء تلك الجهات بكل ترحاب ونزل بينهم بما يليق بمقامه، وكان يرافقه ثلاثة من أبنائه هم: جلال الدين منكبرتى وأوزلاغ شاه وآق شاه. ولما سأل عن قلعة أمينة يمكنه الاحتماء بها، أشاروا عليه بالالتجاء إلى إحدى الجزر فى بحر قزوين لا تبعد كثيراً عن ساحل مازندران. ورأى السلطان علاء الدين محمد نفسه يعمل بتلك المشورة، وانتظر عدة أيام فى إحدى القرى الواقعة على ساحل البحر، لكن المغول لم يلبثوا أن اقتفوا أثره واستدلوا على مكانه وهجموا على القرية، فركب السلطان علاء الدين محمد إحدى السفن وتوارى عن الساحل، وقد أراد بعض الخيالة المغول اللحاق به فرموا أنفسهم فى الماء فابتلعتهم الأمواج.

وأخيراً وصل السلطان الخوارزمى وأبناؤه الثلاثة الذين بقوا له إلى جزيرة «آبسكون» والتجأ إليها، وأقام خيمة نصبها له أحد الأهالى. وقد ساعد أهالى المنطقة الذين كانوا يقيمون على الشاطئ، فقد كانوا يأتونه بما يلزمه من مأكل وما يحتاجه من ضروريات الحياة. وفى نظير ذلك كان السلطان يوصى بإقطاعهم الإقطاعات. ولما استعاد جلال الدين منكبرتى أملاك أبيه بعد بضعة سنين أقر هذه الإقطاعات لأصحابها.

وجد السلطان الخوارزمى وحده فى جزيرة نائية بعيدة عن العمران بل والحياة. وحل عليه التعب والإرهاق. فمرض مما وقع له ولدولته ولشعبه. وما أن علم أن أمه تركان خاتون قد وقعت أسر المغول، وأن بعض نسائه وأطفاله الذين كان قد أودعهم إحدى القلاع قد وقعوا أيضاً أسر المغول وقتلوهم عن أخرهم، اشتد عليه المرض، وما أن شعر بدنو أجله حتى استدعى أبنائه الثلاثة الذين كانوا يرافقونه فى رحلته ووكل أمور دولته إلى أرشد أبنائه جلال الدين منكبرتى، وأعلن أنه الوحيد الذى يستطيع حماية الدولة الخوارزمية وخلع ابنه أوزلاغ شاه الذى كان قد نصبه قبل ذلك وليا لعهده. ومما قال لأبنائه هذه العبارة المؤثرة التى ذكرها النسوى.

«إن عرى السلطنة قد انفصمت، والدولة قد وهنت قواعدها وتهدمت، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه، وتشبثت بالملك أظفاره، وتعلقت أنيابه وليس يأخذ بثأر منه إلا ولدى منكبرتى، وها أنا وبعد أن قضى السلطان علاء الدين محمد الخوارزمشاه فى جزيرة «آبسكون» شهرا، توفى فى ١٣ شوال سنة ٦١٧هـ (١٢٢١م)، ومما يؤسف له أن المحيطين بالسلطان عجزوا عن إيجاد كفن يكفنونه، فقام كل من «سيد شمس الدين محمود بن يلاغ جاوش» و«مهتر مهتران مقرب الدين» رئيس ومقدم الفراشين بغسله، وخلع سيد شمس الدين محمود قميصه وكفنه به. وأمر السلطان الجديد جلال الدين منكبرتى بدفن والده فى نفس الجزيرة.

أما القائدان المغوليان جبه نويان وسوبوتاى فإنهما استوليا على ما مرا به من الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية أثناء مطاردتهما للسلطان علاء الدين محمد، كما تمكنا من الاستيلاء على كل ما كان يحمله السلطان من كنوز وأحجار كريمة وآنية ذهبية وفضية، وبعثا بها إلى الخاقان.

وسارت جيوش المغول إلى همدان التى فتحت صلحا، ثم اتجهت صوب قزوين واستولت عليها أيضاً بعد أن قتل أهلها ما يزيد على أربعين ألفا. وعلى هذا النحو وضع المغول أيديهم على العراق العجمى. واتجه المغول بعد ذلك إلى آذربيجان فى نفس السنة ٦١٧هـ حيث كان يحكمها الأتابك أوزبك بن البهلوان، ففضل مسالمة أعدائه المغول الذين صالحوه بعد أن غمرهم بهداياه من مال وثبات ودواب، ودخل المغول مدينة تبريز عاصمة أذربيجان وحاضره بن البهلوان الذى قبل أن يكون تابعا لهم.

المغول فى غزنة:

بدأ السلطان جلال الدين منكبرتى عهده بأن قرر اتخاذ غزنة قاعدة للنضال الإسلامى ضد المغول. وبدأ يكاتب الأمراء والحاكم ويحثهم على مساعدته بالرجال والعتاد، لكن المغول كانوا يتعقبونه من مكان لآخر لمعرفتهم أنه أقوى الأمراء شوكة وأجرأهم على الحرب والنزاع.

وأخيرا وصل جلال الدين منكبرتى إلى غزنة حيث رحب الأهالى، وانضم

تحت لوائه جموع غفيرة من مختلف الأجناس، وتمكن جلال الدين منكبرتى بحسن سياسته وقوة شخصيته أن يؤلف بين جنود غزنة المتنافرين، ومن أخذتهم الحمية والغيرة على الإسلام من المتطوعين، وأتته الأموال من وجهاء المسلمين وفقرائهم على حد سواء الذين أدركوا أن البلاد فى خطر والإسلام فى محنة. وهكذا استطاع جلال الدين منكبرتى تكوين جيش إسلامى قوى بلغ عدده قرابة سبعين ألف فارس.

السلطان جلال الدين منكبرتى يهزم المغول:

فاجأ السلطان جلال الدين منكبرتى فى ربيع عام ٦١٨هـ (١٢٢١م) طلائع جيش المغول الذى كان يقتفى أثره، وانتصر عليه انتصارا ساحقا فى معركة خاطفة، قتل فيها من المغول قرابة ألف رجل منهم، ثم ظهر جيش المغول الأساسى، وكان قوامه ثلاثين ألف رجل. وكان الصراع شديداً والغلبة تتأرجح بين القوتين المتصارعين. وأخيرا انتصر جلال الدين منكبرتى على جيوش المغول بعد أن سالت الدماء وغطت الأدوية القريبة من ميدان القتال، وولت خيالة المغول الأدبار، واصطادهم جنود السلطان وأجهزة عليهم ز وكان انتقام الخوارزميين من المغول شديداً، حيث كانوا يدقون الأوتاد فى آذان الأسرى، وجلال الدين ينظر إليهم ويعلوا وجهه البشاشة بما ظفر.

ووصلت أخبار السلطان جلال الدين منكبرتى إلى بعض المدن الإسلامية التى خضعت للمغول، فظنت أن انتصار السلطان ضربة قاضية لجيوش جنكيزخان، وأن وقت الخلاص قد حان، فثارت فى وجه المغول، وكانت من بين تلك المدن هرات التى اشتعلت فيها نيران الثورة الاستيلاء عليها، وقتل من أهلها مليوناً وستمائة ألف رجل، كما أجهز المغول على كل شىء فيها ولم يسلم من القتل إلا أصحاب المهن والحرف الذين أبقاهم المغول للاستفادة من خبرتهم ونقلهم إلى منغوليا كعادتهم.

ولم ينعم السلطان جلال الدين منكبرتى بانتصاره على المغول، ذلك أنه حدث خلاف بين قادة جيشه، انتهى بشجار بين الأطراف المتنازعة، حتى أن بعض القادة اعتدى على آخرين باللكم والضرب بالمقارع، فانسحب أحد القادة المضروبين

إلى مدينة بشاور، وانضم إليه عدد كبير من الجنود الغورية وتركوا مدينة غزنة بعد أن خابت جميع جهود السلطان لإعادتهم والصلح بين الأطراف المتنازعة. ولما وجد السلطان جلال الدين منكبرتى أن جيوشه قد أصبحت مقصورة على الأتراك الخوارزميين دون الجنود الغورية الذين كانوا يكونون عصب الجيش الإسلامى أدرك أنه لم يعد قادراً على مواجهة المغول، واضطر إلى الانسحاب إلى سهل يقع غربى نهر السند حين علم بقدوم المغول بقيادة جنكيزخان إلى إقليم للانتقام من الهزيمة التى حلت بجيشه فى سهولها.

وجمع جلال الدين السفن ليعبر بها نهر السند هو وجنوده عله يجد مأمنا فى بلاد الهند. وما أن علم البحارة الهنود من أهل السند بمقدم جنكيزخان حتى لاذوا بالفرار بسفنهم تاركين السلطان الخوارزمى وجنوده على الشاطئ ولم يستطع جلال الدين مكنبرتى أن يحصل إلا على سفينة واحدة أمر أن تنقل فيها أمه وزوجه وأولاده الأطفال. لكن المركب ما لبث أن تحطمت وتعذر عبور أسرة الخوارزمشاه. وفى هذه الأثناء وصل جنكيزخان إلى غزنة وجد فى السير للحاق بجلال الدين منكبرتى ليحول دون عبوره النهر.

وهكذا أجبر جنكيزخان عدوه السلطان الخوارزمى على خوض معركة غير متكافأة، بدأها بأسر مؤخرة جيشه وأجهز عليها، ثم حاول أن يطوق الباقى بقوات تنتشر على شك لنصف دائرة لتسد جميع المنافذ على الجنود الخوارزمية وتحصرها بين نهر السند من جهة والجيوش المغولية من جهة أخرى. ورأى جلال الدين منكبرتى أن يختار أمرين، إما أن يبذل أقصى ما يستطيعه من جهد فينتصر على المغول أو يموت إما بسيوف المغول ورماحهم، وإما غرقا فى نهر السند، وثبت السلطان جلال الدين منكبرتى أول الأمر لهجوم المغول حتى أنه حمل بنفسه على قلب الجيش المغولى حيث يقيم جنكيزخان فمزقه وأصابه بتلفيات شديدة، وكاد الجيش المغولى ينهزم وتدور الدائرة عليه لولا أنه تمكن من كسر ميمنة جيش السلطان، فانهزمت وتبددت. كذلك حلت الهزيمة بالميسرة، ووقف جلال الدين منكبرتى فى القلب ومعه سبعمائة رجل يقاتلون بشجاعة نادرة ويحاولن إحداث ثغرة فى صفوف أعدائهم حتى يهربوا منها.

السلطان جلال الدين منكبرتى يفر إلى الهند كلاجئ وطريد:

ولما لم يجد السلطان جلال الدين مكنبرتى سبيلا إلى اختراق صفوف المغول، ولى وجهه شطر النهر وقذف بنفسه وهو ممتط جواده من ارتفاع عشرين ذراعا، واستطاع بهذه الوسيلة أن يعبر النهر إلى الجانب الشرق، أما جيشه الذى ثبت معه فقتل عدد كبير من جنوده فى المعارك التى نشبت وغرق الباقون الذين حاولوا العبور إلى الضفة الشرقية، وأسر المغول أحد أبناء السلطان وكان طفلاً دون الثامنة فقتله جنكيزخان بيده. يقول ابن الوردى ويؤيده فى ذلك النسوى مؤرخ الخوارزمين ما يلى: «رأى السلطان جلال الدين منكبرتى والدته وأم ابنه وحريمه يصحن بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن، وهذه من عجائب البلايا ونوادر الرزايا».

وهم كثير من الجنود المغولية بعبور النهر واللحاق بجلال الدين، غير أن جنكيزخان أسرع ومنع جنوده من اللحاق بالسلطان. ولما علم جنكيزخان أن عدوه الخوارزمى أمر بإلقاء كل ما كان يمتلكه من ذهب وفضة فى نهر السند حتى لا يقع غنيمة سهلة فى يد المغول، أمر بعض رجاله المتخصصين فى الغوص بالبحث عن الكنوز الخوارزمية، فغاصوا فى النهر وأمكنهم انتشال بعض هذه الكنوز.

وهام جلال الدين منكبرتى على وجهه فى بلاد السند يبحث عن مأوى، ومعه قرابة أربعة آلاف من الجنود الخوارزمية الذين استطاعوا النجاة بأنفسهم والعبور إلى الضفة الشرقية من نهر السند واللحاق بسلطانهم. ومن المؤسف حقاً أن جنود السلطان جلال الدين منكبرتى وكلهم من الترك لم يرعوا حرمة إقامتهم فى بلاد الهند التى استضافتهم شعبها وقدم لهم ما يحتاجونه من مؤن وعتاد وملابس، وتصرفوا وكأنهم فى ديارهم فأغاروا على بعض أقاليم الهند العامرة وخربوها وجمعوا ما بها من ذهب وفضة واعتدوا على النساء واستولوا على عدد وفير منهن، وفرضوا الإتاوات على الحكام والأهالى ونهبوا ما وجدوه أمامهم من ملبس ومأكل وسلاح وغير ذلك من النفائس، وباختصار عاثوا فى البلاد فساداً مما ترك أثراً سيئاً لدى كافة الهنود من المسلمين وغيرهم عن هؤلاء الخوارزميين.

وفكر جلال الدين منكبرتى فى الالتجاء إلى مدينة دهلى عندما علم أن

فصائل تجد فى البحث عنه. وما أن علم سلطان دخلى باقتراب السلطان الخوارزمى ورجاله من المدينة عمل على إبعاده بشتى الطرق، فأرسل إليه الهدايا وعرض عليه صداقته، كما عرض عليه ابنته ليتزوج منها، ثم أفهمه أن جو بلاده لا يلائمه، فامتثل السلطان جلال الدين منكبرتى لنصيحة دهلى وابتعد عن المدينة.

إن الفترة التى قضاها السلطان جلال الدين منكبرتى فى الهند كانت قاسية للغاية على سلطان مثله، وكثيراً ما كان يظهر بمظهر الكسير الذليل من هول ما أصاب دولته بعامة، وما أصاب أسرته بخاصة، بعد موقعة السند التى فقد فيها كل شىء، أمه وأم ولده وابنه وحريمه وجيشه وأمواله وعرشه آخر الأمر وصار طريداً مطارداً لا يعرف ماذا لا يعرف ماذا تخبئه الأيام.

نهاية جنكيزخان:

عزم جنكيزخان على العودة إلى منغوليا فى ربيع عام ٦٢٠هـ (١٢٢٣م)، بعد أن دمر أملاك الخوارزميين وحطم كل محاولة فيها، وجعل البلاد الإسلامية أشبه ما تكون بصحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، وأباد سكانها وخرب مدنها وأزال عددا منها. كذلك نجح الطاغية المغولى فى تشريد السلطان علاء محمد الخوارزمشاه الذى ظل طريدا شريدا تتلقفه مدينة وتلفظه الأخرى، إلى أن مات منكسر الجناح ذليلاً فى جزيرة «آبسكون» ببحر قزوين. كما طارد ابنه وخليفته جلال الدين منكبرتى حتى ألجأه إلى بلاد الهند لا يلوى على شىء يتقبل الحسنات والهبات والمواساة. وأصدر جنكيزخان قرارا - قبل أن يبدأ رحلة العودة - بقتل جميع الأسرى الكثيرة العدد الذين تجمعوا فى خيام المغول، حيث كانت كل خيمة تضم حوالى عشرين أو ثلاثين أسيراً من الحرفيين والفنانين وكبار الشخصيات والقادة الخوارزميين وغيرهم، فقتلا جميعاً فى ليلة واحدة. إن هذه المذبحة لم يعرف لها التاريخ مثيلا حيث سالت دماء هؤلاء الأسرى على شكل نهر سريع الجريان، وأما هؤلاء كانوا من الشباب المسلم الذين أجبرهم المغول على القتال فى صفوفهم، أو أصحاب الحرف والفنون أو كبار القوم وعليتهم.

وسارت الجيوش المغولية فى طريق التبت أولا، لكن الخاقان أدرك مدى الصعاب التى ستواجهه أثناء عبور الأقاليم الجبلية الوعرة المغطاة بالثلوج، فعاد إلى

بشـاور وآثر أن يسلك الطريق الذى سلكه عند قـدومـه إلى إيران. ولما وصل إلى مدينة بلغ أمر بقتل جميع السكان الذين عادوا وسكنوا المدينة، ثم عبر نهر جيحون فوصل إلى مدينة بخارى ومنها إلى سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر، فلما وصل إليها خرج كبار رجال الدين فيها لاستقباله، ولما مثلوا بين يديه طلب الدعاء له فى الخطبة، ثم أمر بـإعفائهم من الضريبة الـتى كانوا يدفعونها. وفى سـمرقند طلب جنكيزخان أبناءه جميعاً ليكونوا إلى جانبه حينما يرحل إلى منغوليا.

وقضى جنكيزخـان شتاء عام ٦٢٠هـ (١٢٢٣هـ) فى سمرقند وضـواحيها، ولما حل الربيع بدأ فى السيـر، والتقى بولديه جغـتاى وأوكتاى، والأخيـر كان فى قافلته أسيرة ملكية هى تركان خاتون أم السلطان علاء الدين محمد وجدة السلطان جلال الديـن منكبرتى. وقـضى جنكيزخـان السنة التاليـة ٦٢١هـ فى الطريق إلى موطنه الأصلى. وفى هذه الفترة تقابل مع حفيديه قوبيلاى وهولاكو، وكان الأول فى الحادية عشرة من عمره، والثانى كان فى التاسعة. وأخيراً وصل جنكيزخان إلى قره قـورم سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م)، وشرع فى محـاربة أعدائه القدامى من القـبائل المغولية والتركية وخاصة قبـائل التانجوت، كما أعلن الحرب على إمبراطورية سونج الصينيـة، واشترك جنكيزخـان فى هذه الحرب بنفسـه، لكنه مات فى سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م)، ولم تكن الحرب قـد انتهت بعـد، أثر مرض لزمه نـتيجـة لرداءة الجو على شاطئ نهر السند أثناء مطاردته للسلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى، وله من العمر اثنان وسبعون عاما.

❊ ❊ ❊